وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في الأسلوبية وتحليل الخطاب

موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس جذع مشترك

السداسي الثالث

د. محمود طلحة

أستاذ محاضر (أ)

2024/2023

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في الأسلوبية وتحليل الخطاب

موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس جذع مشترك

السداسي الثالث

د. محمود طلحة

أستاذ محاضر (أ)

2024/2023

الفهرس

- مقدمة..... 4
- المحاضرة الأولى: مفهوم الأسلوبية ومجالها 6
- المحاضرة الثانية: الأسلوبية التعبيرية 19
- المحاضرة الثالثة: الأسلوبية البنيوية 23
- المحاضرة الرابعة: الأسلوبية الإحصائية..... 32
- المحاضرة الخامسة: الأسلوبية النفسية..... 39
- المحاضرة السادسة: الأسلوبية التوزيعية 43
- المحاضرة السابعة: الظواهر الأسلوبية..... 48
- المحاضرة الثامنة: تحليل الخطاب: ضبط مفهومي الخطاب والنصّ..... 56
- المحاضرة التاسعة: أصناف الخطاب: الخطاب اللغوي وغير اللغوي 66
- المحاضرة العاشرة: مقاربات تحليل الخطاب 1 75
- المحاضرة الحادية عشرة: مقاربة تحليل الخطاب عند "توين فان دايك"..... 85
- المحاضرة الثانية عشرة: مقاربة تحليل الخطاب عند "دومنيك مانغينو" 91
- المحاضرة الثالثة عشرة: مقاربة تحليل الخطاب عند "رولان بارت"..... 99
- المحاضرة الرابعة عشرة: الأسلوبية وتحليل الخطاب..... 104

مقدمة

تمثّل هذه المحاضرات خلاصة ما يمكن تقديمه للطلبة في مقياس "الأسلوبية وتحليل الخطاب" للسنة الثانية في مرحلة الليسانس، وموازاةً مع تعرّف الطلبة على اللسانيات العامّة وعدد من مفاهيمها، يكتشفون العلاقة بين اللسانيات من جهةٍ والخطاب الأدبي من جهة أخرى، فالأسلوبية وليدةُ تلك العلاقة، ولعلّ ما تميّزتْ به كما سيرى القارئ هو محاولة الضبط؛ ضبطِها لموضوع بحثها إذ توجّهت تقريباً كلُّ الدراسات الأسلوبية إلى النصوص الأدبية، للتعرّف على مميّزات النص الأدبي وقيمه الجماليّة، وللنظر في تلك الخاصّية المسمّاة بالأسلوب، وضبطِهَا من جهة أخرى للأدوات التي تستخدمها في التعرّف على الأسلوب، أو في اكتشاف البعد الجماليّ للنص الأدبي، ولذا أتى برنامج المقياس للإجابة عن تلك المتطلّبات المنهجية والمعرفية، فالمحور الأوّل من المحاضرات للتعرّف على الأسلوبية.

ففي المحاضرة الأولى نتعرّف على الأسلوبية لغةً واصطلاحاً، ولأنّها وليدةُ الدراسات الغربية كان لابدّ من النظر في أهمّ تعريفاتها عند الغربيّين ثمّ من نقل عنهم من الباحثين العرب، ولأنّ الأسلوبية تعدُّ وريثة للبلاغة، رأينا أن نضبط العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة الغربية ثمّ البلاغة العربية، بالتركيز على أهمّ نقاط التشابه والاختلاف، ونقاط التقاطع بينهما، ثمّ عرّجنا إلى العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات باعتبار الأسلوبية وليدةً لها، وفي عنصر آخر رأينا أنّه من الضروريّ محاولة التعرّف على الظاهرة التي يدرسها هذا العلم، أي الأسلوب فأوردنا مجموعة من التعريفات له لنجمع بعض الخصائص التي يتميّز بها. وفي المحاضرة الثانية تناولنا أقدم مناهج الأسلوبية وهي الأسلوبية التعبيرية عند "شارل بالي"، ثم في المحاضرة الثالثة كان موضوعها الأسلوبية البنيوية وفيها تناولنا جهود كلٍّ من "كوهين" و"ريفاتير" باعتبارهما قطبيْن من أقطاب المنهج البنيوي في المفاهيم الأسلوبية، وفي المحاضرة الرابعة انتقلنا إلى الكلام عن الأسلوبية الإحصائية وهي أسلوبية شاعت بنتائجها المضبوطة وتناولنا فيها عمل كلّ من "كونراد بيرو" و"سعد مصلوح"، وتطرّقنا في المحاضرة الخامسة إلى الأسلوبية النفسية عند قطبها المشهور "ليو سبيتزر"، وانتقلنا في المحاضرة السادسة إلى محاولة التعرّف على مفاهيم التوزيع والاختيار والتركيب عبر ما

يسمّى بالأسلوبية التوزيعية، وتناولنا في آخر المحور الأول الظواهر الأسلوبية متمثّلة في الانزياح والتكرار عبر المحاضرة السابعة.

وأمّا في المحور الثاني متمثّلاً في تحليل الخطاب، فقد كان فيه الانتقال إلى تخصّص جديدٍ قائمٍ بذاته، يضمّ مجموعةً من المفاهيم، ولذا كانت المحاضرة الثامنة للتعرّف على تحليل الخطاب عبر ضبط مفهومي النصّ والخطاب، ثمّ انتقلنا إلى إبراز الفرق بين الخطاب اللغوي والخطاب غير اللغوي في المحاضرة التاسعة، وعبر المحاضرات من العاشرة إلى الثالثة عشرة كان موضوع كلذ محاضرة التعرّف على مقاربات تحليل الخطاب بوجهات نظرٍ مختلفةٍ وعبر مفاهيم متعدّدة من "ميشال فوكو" إلى "توين فان دايك" إلى "دومنيك مانغينو" إلى "رولان بارت"، وأمّا المحاضرة الرابعة عشرة فقد كانت محاولة لقراءة العلاقة بين الأسلوبية وتحليل الخطاب عبر جهد باحثيْن عربيّيْن وإمكانية قراءة عمليْهما تحليلاً للخطاب.

المحاضرة الأولى:

مفهوم الأسلوبية ومجالها

1- التعريف اللغوي للأسلوبية:

يمكننا إذا أردنا التعرّف على مفهوم الأسلوبية أنْ نرجع إلى الأصل اللغوي لهذا اللفظ، فهو مأخوذ من كلمة "أسلوب"، وأصله اللغويّ في العربية "سلب"، يقول ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": «السين واللام والباء أصلٌ واحدٌ، وهو أخذُ الشيءِ بخفَّةٍ واختطافٍ، يقال سلبتُهُ ثوبَهُ سلبًا،...»[1]، ويقول الزمخشري في معجمه "أساس البلاغة": «سلب: سلبَهُ ثَوْبَهُ وَهُوَ سليبٌ، ...، وسلَكْتُ أُسْلُوبَ فُلانٍ: طريقَتَهُ، وكلامُهُ على أساليبَ حَسَنَةٍ، ...»[2]، وفي "لسان العرب" لابن منظور: «ويقال للسطر من النخيل أُسْلُوبٌ، وكلّ طريق ممتدٍّ فهو أُسْلُوبٌ، والأسلوب: الطريقُ، والوَجْهُ، والمذْهَبُ، يقال: أنتمْ في أسلوبِ سوءٍ، ويُجْمَعُ: أساليبَ، ...، والأسلوبُ بالضمّ: الفنُّ، يُقَالُ أخذَ فلانٌ في أساليب من القولِ أي أفانين منهُ»[3]، ونستطيعُ أن نقول بأنّ لفظ "أسلوب" مجازٌ مأخوذٌ من الطريق الممتدّ، أي أنّه كانت له دلالةٌ وبمرور الزمن تطوّر للدلالة على معنًى آخر، وهو الأكثر ارتباطًا بما نعرفه الآن في الاستعمال الحديث للكلمة، يقول أصحاب "المعجم الوسيط": «الأسلوب: الطريق، ويقال: سلكت أسلوب فلان في كذا، طريقته ومذهبه، والأسلوب: طريقة الكاتب في كتابته، والأسلوب: الفنّ، يقال: أخذنا في أساليب من القول: فنونٍ متنوّعةٍ »[4]، إذن فمعنى كلمة "أسلوب" الآن تعني طريقة الكتابة أو طريقة التعبير، ويمكننا أن ننظر في كتب التراث القديمة لنعرفَ من أشار إلى كلمة "أسلوب" بهذا المعنى، والمثال على ذلك "ابن قتيبة" في كتابه: "تأويل مشكل القرآن"، إذ يقول فيه: «وإنّما يعرف فضل القرآن مَنْ كَثُرَ نظرُهُ، واتّسع علمهُ، وفهم مذهب العربِ وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات ...»[5]، فهو يستعمل كلمة "أسلوب" بالجمع ليدلّ على طرق أداء المعاني، وهناك استعمال آخر للفظ "أسلوب" نجده عند "الخطّابي" في رسالته "بيان إعجاز القرآن" إذ يقول: «وهاهنا وجهٌ آخرُ يدخل في هذا الباب، وليس

1 ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، ص92.

2 الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص468.

3 ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص473.

4 المعجم الوسيط، ص441

5 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص12.

بمحض المعارضة ولكنّه نوعٌ من الموازنة بين المعارضة والمقابلة، وهو أن يجريَ أحد الشاعريْن في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أَوْدِيَتِهِ، فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان بباله من الآخر في نعت ما هو بإزائه»[1]، ونستطيع أن نقول بأنّ الخطابي يربط كلمة الأسلوب بالغرض أو الموضوع الذي يريد صاحب الكلام أن يقوله، والخلاصة في هذا أن نقول بأنّ كلمة "أسلوب" الدالّة على طريقة معيّنة في الكتابة أو النظم أو الكلام عمومًا، قد وُجدَتْ لها استعمالات عديدةٌ في التراث العربي سواءٌ عند البلاغيين أو النقاد مثل: ابن قتيبة والخطابي وابن رشيق القيرواني والباقلاني وابن الأثير وحازم القرطاجني وغيرهم.

2- تعريفات الأسلوبية وخصائصها:

أمّا كلمة "الأسلوبية" فهي استعمال جديدٌ في الدراسات الأكاديمية المعاصرة، ترجمَ بها "عبد السلام المسدّي" كلمة " La Stylistique" والتي تعني العلم المهتمّ بدراسة الأسلوب، وهناك من المترجمين من فضّل ترجمتها بعلم الأسلوب مثل "شكري عيّاد"[2] أو "صلاح فضل"[3]، وهذه الكلمة (La Stylistqiue, Stylistics) مشتقّة من كلمة "Style" (التي تترجم بأسلوب)، وأصلها اللغوي يختلف عن أصلها اللغوي في اللغة العربية، فأصلها إغريقي مشتقٌّ من كلمة "Stylus" وتعني آلة الكتابة أو المثقب الذي كانوا يكتبون به[4]، ولا شكّ أنّ التطوّر الدلالي الذي أصاب اللفظ واضحٌ بيّنٌ، فقد صار يُطْلَقُ على كلِّ طريقةٍ في التعبير عن الأفكار بواسطة اللغة، والحقيقة أنّه لا يوجدُ تعبير عن الفكر بدون لغةٍ، فالفكر نفسه مجموعة التعابير اللغوية التي يختزنها الذهن.

ظهرت أوائل الاستعمالات لمصطلح "أسلوبية" في القرن التاسع عشر في أوربا عند الألمان، وبالتحديد عند "نوفاليس Novalis"، ثمّ انتقل استعمال المصطلح من الألمانية إلى اللغات الأوربية،

1 الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ص65.

2 شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب.

3 صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته.

4 Gervias MendoZé, Abrégé de stylistique pratique. pp 12

وخصوصًا الإنجليزية والفرنسية، وكان هذا الاستعمال في الأغلب يقصد بالأسلوبية نوعًا من البلاغة الغربية أو تركيزًا على مفاهيم بلاغية معيّنة مثل الصور والاستعارات.

وظهر أوّلُ استعمال جديد لمصطلح الأسلوبية عند "شارل بالي" (سنة 1909) في كتابه "دراسة في الأسلوبية الفرنسية" وقدّم فيه تعريفاً لها هو كالتالي: « تدرس الأسلوبية ظواهر التعبير الكامنة في اللغة من جهة محتواها العاطفي، أي التعبير عن ظواهر الإحساس بواسطة اللغة، وفعل الظواهر اللغوية في الإحساس»[1]، وقد ظهرت بعده عدّة تعريفات ونظريات واتّجاهات في الأسلوبية تختلف معه في هذا التعريف، غير أنّ هناك مجموعةً من الخصائص التي تشترك بين تلك التعريفات التي يقدّمها منظّرو الأسلوبية، ويمكننا الإشارة إلى بعض تلك التعريفات قبل استخراج الخصائص العامّة لهذا العلم والتي تميّزه عن غيره من العلوم:

- الأسلوبية بحثٌ عمّا يتميّزُ به الكلام الفنّي من بقية مستويات الخطاب أوّلًا، ومن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً (رومان جاكبسون)[2].
- الأسلوبية عادةً هي الدراسة العلمية لأسلوب الآثار الأدبية (معجم اللسانيات)[3].
- الأسلوبية علمُ الخصائص الشكلية في الأقوال (بيير لارتوما)[4].
- الأسلوبية علمٌ تحليليٌّ تجريديٌّ، يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنسانيّ عبر منهج عقلانيٍّ يكشف البصمات التي تجعل السلوك اللساني ذا مفارقات عمودية (عبد السلام المسدّي)[5].
- الأسلوبية أو علم الأسلوب هي علمٌ لغويٌّ حديثٌ، يبحث في الوسائل اللغوية التي تُكْسِبُ الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية، فتميّزه عن غيره، إنّها تتقرّى "الظاهرة

---

1 Charles Bally, Traité de stylistique française, p 16.
2 Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, trad: NicolasRuwet, T1 p
3 J.Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p448.
4 بيير لارتوما، مبادئ الأسلوبيات العامة، ترجمة: محمّدالزكراوي، ص18.
5 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص37.

الأسلوبية" بالمنهجية العلمية، اللغوية، وتعتبر "الأسلوب" ظاهرةً، هي في الأساس لغويةً، تدرسها في نصوصها، وسياقاتها (عدنان بن ذريل)[1].

- تتناول ظاهرة الاستعمال الفردي المتميّز للغة، وكما تركّز على وظيفة الإبلاغ والإفهام فإنّها تركّز على وظيفة التأثير في المتلقّي أكثر (سعد مصلوح).

ونستطيع أن نستنتج من هذه التعريفات المختلفة بعض الخصائص التي تتميّز بها الأسلوبية وهي:

1- أوّل خاصّية هي أنّ الأسلوبية من العلوم الإنسانية، ولذلك فالنتائج التي تصل إليها من تحليل أسلوبٍ مّا هي نتائج احتمالية فقط، وليست دقيقةً، إذ هي في الأغلب ناتجةٌ عن اجتهادٍ في الرأي.

2- يمكن أن نلمس من كلمات الفنّ والجمال في تعريف الأسلوبية بأنّها فرعٌ عن علم الجمال، فالمحلّل الأسلوبي يسعى إلى اكتشاف ما تتميّز به النصوص الأدبية عن غيرها من النصوص، ولذلك يمكننا القول بأنّ الأسلوبية تصف النصوص وتفسّرها من خلال قيمٍ جماليّة معينة، دون الاحتكام إلى معايير معيّنة.

3- موضوع الأسلوبية هو مجموعةٌ من النصوص الشفهية والمكتوبة، غير أنّها تركّز على النصوص الأدبية، فهي النصوص التي كان يطبّق عليها النظّار مناهجهم في التحليل الأسلوبي.

4- إنّ هدف أغلب الدراسات الأسلوبية هو بيان كيف يشتغل النص، أي أنّ الأسلوب ليس إلّا اختياراً يقوم به صاحب النصّ، وتهتمّ الأسلوبية بأسباب هذا الاختيار عن طريق تحليل كيفيّاته في المستويات اللغوية.

1 عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، ص131.

3- الأسلوبية والبلاغة:

حاولنا فيما سبق أن نحدّد الأسلوبية فقلنا بأنّها دراسة لسانية (لغوية) للخطاب الأدبي، وحصرنا الدراسة أوّلاً في المجال اللغوي لكي تتميّز الأسلوبية عن الدراسات الأدبية الأخرى مثل النقد الأدبي والفيلولوجيا والبلاغة، كما حصرناها في مجال النصوص الأدبية لأنّها تتميّز بإدراج مجموعةٍ من الظواهر الخاصّة التي لا نجدها في غيرها من النصوص أو الاستعمالات اللغوية العادية، إنّ هذه الظواهر هي التي تجعل لنصوص الأدب ميزة التأثير في المتلقّي. وفي هذا الإطار يمكننا أن نطرح مجموعةً من الأسئلة حول المفاهيم التي تميّزت بها الأسلوبية:

- الأسلوبية علمٌ حديثُ النشأة أم قديمها؟

- ما هي العلوم التي لها نفس الاهتمام مع الأسلوبية؟

- هل هناك نقاط التقاءٍ بين الأسلوبية والبلاغة؟

إنّ هذا العلمَ غربيُّ النشأةِ، ولذلك لا عجبَ أن نجد حيرةً لدى الباحثين العرب خصوصاً حين يريدون التفريق بين البلاغة والأسلوبية، ولذلك ننطلق في التفريق بين البلاغة والأسلوبية من التفريق بين بلاغتين: البلاغة الغربية والبلاغة العربية.

3- 1- البلاغة الغربية والأسلوبية:

البلاغة ترجمة معتمدةٌ عند الباحثين لمصطلح (Rhétorique) وهو علمٌ قديم النشأة ظهرت أولى الكتابات فيه عند اليونان وخاصّة كتاب أرسطو (البلاغة)، وقد ترجمها العرب قديماً في عصر الترجمة بالريطوريقا، كما ترجمها بعضهم بالخطابة، لأنّ أصل الاهتمام فيها كان فنّ الخطابة الذي كان شائعاً عند اليونان، وقد بقيت الصيغة التي أعطاها أرسطو للبلاغة كما هي مع بعض الإضافات التي اعتمدها الرومان أو اللاتينيون إلى بداية القرن 19 الميلادي (أرسطو، شيشرون، كانتيليان).

تضمّ البلاغة القديمة خمسة أجزاء هي[1]:

1- الإيجاد (INVENTIO): أي تحضير ما يقال مثل المواضع والحجج وتقنيات الإقناع.

2- الترتيب (DISPOSITIO): تنظيم المادّة (أجزاء الخطاب).

3- العبارة (ELOCUTIO): فنّ اختيار الكلمات (الإيقاع والصور).

4- الإلقاء (PRONUNTIATIO): أي كيفية التلفظ بالخطاب.

5- الذاكرة (MEMORIA): الرجوع إلى الذاكرة.

وقد قسّم أرسطو الأجناس الخطابية إلى تبعاً لهذا إلى ثلاثة أجناس أساسية: الخطابة القضائية، والخطابة الاستشارية، والخطابة الاحتفالية. وقد اكتسبت البلاغة بصورتها هذه طابعاً تعليميا بمرور الأزمنة حتّى صارت مجموعةً من القواعد الشكلية المرتبطة بالأدب الكلاسيكي عند الأوربيين، ولنا أن نتساءل عن نقاط التشابه والاختلاف بين البلاغة والأسلوبية الحديثة باعتبارهما تهتمّان بالنصوص الأدبية، وهذا ما يمكننا أن نختصره في النقاط التالية:

البلاغة الغربية	الأسلوبية
1- علم معياريّ يصوغ مجموعة من القواعد 2- تعليميّ 3- يمكن تطبيقها على غير النصوص الأدبية 4- تهتمّ في الأصل بدراسة الجوانب البلاغية التي ترتبط بالإقناع والحجاج	1- علم وصفيّ يصف فقط. 2- لا تسعى إلى غايةٍ تعليمية 3- تحاول تحديد مجال اهتمامها في الخطاب الأدبي فقط 4- لا تحصر دراستها بجانب دون آخر، وإنّما هي تدرس المستويات اللغوية كلها التي تكتسب قيمةً أسلوبية.

1 هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة: محمّد العمري، ص33.

3- 2- البلاغة العربية والأسلوبية:

مرّت البلاغة العربية بمراحل عديدةٍ يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل هي:

1- مرحلة النشأة: والتي ترتبط بكتابات الجاحظ وابن المعتزّ وأبي هلال العسكري وغيرهم ممّن حاولوا إدراك الظواهر الأدبية وتسجيلها.

2- مرحلة التنظير: وهي المرحلة التي تشكّلت فيها المواضيع البلاغية الأساسية عبر ما كتبه عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة".

3- مرحلة الصياغة المنظّمة: وتتمثّل فيما قام به السكاكي في مفتاح العلوم من تنظيم للمواضيع البلاغية، وما قام به القزويني من تلخيص لهذه الصياغة التي صارت البلاغة في صيغتها الحالية التي وصلت إلينا.

وتنقسم دوائر اهتمام البلاغة إلى ثلاثة أقسامٍ أساسية هي علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ويمكننا في هذا الجدول أن نحدّد الفروق الأساسية بين البلاغة العربية والأسلوبية:

البلاغة العربية	الأسلوبية
1- علم معياريّ يستمدّ قواعده من النحو والنقد والعروض وغيرها من العلوم.	1- علم وصفيٌّ
2- تهتمّ بالخطاب الأدبي البليغ	2- تهتمّ بالخطاب الأدبي فقط.
3- تهتمّ بجوانب محدّدة وتضع لها قواعد وهي التراكيب والصور والمحسّنات.	3- مجال الدراسة هو المستويات اللغوية المتعدّدة
4- علم تعليميٌّ	4- لا تسعى إلى غايةٍ تعليمية.

ويمكننا أن نلخّص وجهة النظر في أنّه بالرغم من الاختلاف بين الأسلوبية والبلاغة بصورتيها الغربية والعربية، إلّا أنّ كثيراً من الباحثين اعتبر الأسلوبية وريثاً للبلاغة، غير أنّ دوائر الاهتمام فيها قد اتّسعتْ لتشمل المستويات اللغوية المشكّلة للنص الأدبي، وهو ما يميّزها عن البلاغة، ولكنّ هذا لم يمنع

الأسلوبية من أن تستمدّ كثيراً من المفاهيم عن البلاغة، وهنا يمكن أن نقرّ بوجود متميّز للبلاغة العربية، لأنّ الباحثين العرب في الأسلوبية وجدوا كثيراً من المصطلحات البلاغية التي تشير إلى مفاهيم أسلوبية كالتقديم والتأخير والحذف والاستعارة والجناس والطباق وغيرها من الظواهر التي يتميّز بها الخطاب الأدبي.

4- الأسلوبية واللسانيات:

إذا كانت العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة قد تحدّدت بأنّ الأسلوبية ميراثٌ للمفاهيم البلاغية، مع اختلاف نقاط التركيز ومنهجية البحث فيهما، فإنّ علاقة اللسانيات بالأسلوبية نوعٌ آخرُ من العلاقة نتعرّف عليه من خلال تعريف اللسانيات.

4- 1- تعريف اللسانيات:

عُرِفَتْ اللسانيات بأنّها الترجمة العربية المطروحة لمصطلح "La linguistique" ويعرّفها "أندريه مارتيني A. Martinet" بأنّها: «الدراسة العلمية للّسان البشري»[1]، وقد اشترط في وصف هذه الدراسة بأنّها علمية شرطين أساسيّين هما:

- **الوصفية**: بمعنى أن تكون واصفةً لموضوعها.

- **الموضوعية**: بمعنى أنّها تبتعدُ عن الذاتية في دراستها لموضوعها.

ومن الناحية التاريخية، ارتبط التأسيس الحقيقي للسانيات كعلمٍ قائمٍ بذاته باسم اللساني السويسري "فرديناند دي سوسير F. De Saussure" وذلك عبر كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة"، ومن المفاهيم التي أتى بها دي سوسير والتي كانت لها الصلة الوثيقة بتطوّر الأسلوبية مجموعةٌ من الثنائيات والتي حدّد من خلالها مجال البحث في اللسانيات، ويهمّنا من تلك الثنائيات:

1 André Martinet, Eléments de linguistique générale, p 6.

- **الوصفية والمعيارية**: إذ رأى دي سوسير في الاتّجاهات اللسانية التي قبله من اتّخذت معياراً منطقياً في الحكم على اللغة، مثل نحاة بورروايال، لذلك فضّل أن يكون المنهج في اللسانيات وصفياً.

- **اللغة والكلام**: حاول دي سوسير أن يميّز بين موضوعين مختلفين في اللسانيات، وذلك لأهدافٍ صارتْ معروفةً بغرض اللسانيات البنيوية، وهما اللغة والكلام، فقد رأى بأنّ اللسان ظاهرة طبيعية تميّز الإنسان عن غيره من الكائنات، وله تمثيلان: أحدهما هو اللغة، وهي نظامٌ لساني قائمٌ بذاته، خاصّ بكلّ مجتمع على حدةٍ، وهي مؤسّسة اجتماعية لا دخل للفرد فيها، أي أنّها مجموعةٌ من القواعد في مختلف المستويات، ولذلك فهي قابلةٌ للدراسة الموضوعية، أمّا التمثيل الثاني للسان فهو الكلام، أي التمثيل الفردي المتعلّق بالفرد الواحد، أو الأداء الفردي لقواعد اللغة والمتعلّق بإرادة المتكلّم، ولذلك رأى بأن اللغة هي التي تمثّل الموضوع الحقيقي للسانيات.

4- 2- الأسلوبية واللسانيات:

نستطيع تلخيص العلاقة بين اللسانيات والأسلوبية في الجدول التالي:

اللسانيات	الأسلوبية
1- منهجها وصفيّ	1- منهجها وصفيّ.
2- تدرس جميع مستويات اللغة	2- تدرس جميع المستويات اللغوية الموجودة في النص الأدبي
3- تُعْنَى بالجملة كأقصى حدّ للدراسة.	3- تتجاوز الجملة إلى النصّ.
4- تهتمّ بالنظر إلى اللغة باعتبارها نظاماً.	4- تهتمّ باللغة كما تهتمّ بعلاقتها بالأديب والمتلقّي.

ونستطيع القول بأنّ الأسلوبية عبر سنوات تطوّرها صارت تعدّ فرعاً من فروع اللسانيات، لأنّها تأخذُ منها المنهج والطريقة في الدراسة لتطبّقها على النص الأدبي، ولذلك صار من المعروف أن تُعتبرَ أسلوبية "شارل بالي" مثلاً بأنّها لسانيات خاصّة بالكلام، أو يمكننا أن نأخذ تعريفاً لأكثر من منظّرٍ

أسلوبيٍّ يؤكّد كلُّ واحدٍ منهم في تعريف الأسلوبية اعتمادَها على اللسانيات، يقول "ميشال أريفي" مثلاً: «إنّ الأسلوبية وصفٌ للنصّ الأدبي حسبَ طرائقَ مستقاةٍ من اللسانيات»[1].

5- مفهوم الأسلوب:

تطرّقنا فيما سبق إلى محاولة التعرّف على الأسلوبية عبر تحديد موضوع دراستها ونقاط التشابه والاختلاف فيما بينها وبين البلاغة بصورتيها الغربية والعربية، ثمّ بيان علاقتها باللسانيات، وإذا كنّا قد حدّدنا موضوع الأسلوبية بأنّها دراسة علمية للأسلوب في النصوص الأدبية، فمن مقتضيات المنهج العلمي أن نتعرّف على الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً، فما هو مفهوم الأسلوب؟ وبم يتميّز حتّى صار موضوعاً لعلم مستقلّ؟.

كنّا قد أشرنا من قبلُ إلى التعريف اللغوي للأسلوب، في أثناء تعريفنا للأسلوبية وبدايات استعمال مصطلحها، أمّا من الناحية الاصطلاحية فإنّ التعريفات التي يقدّمها لنا علماء الأسلوبية لمفهوم الأسلوب كثيرةٌ، غير أنّها لابدّ وأن تشترك في مجموعةٍ من الخصائص، لذا نحاول هنا الإشارة إلى بعض التعريفات في الدراسات الأكاديمية العربية والغربية ونرى ما فيها من خصائص:

1- "الأسلوب هو بوجه عامٍّ طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابةً" (معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة).

2- "الأسلوب هو أوصاف الخطاب الأكثر خصوصية والأكثر ندرةً، والتي تسجّل عبقرية أو موهبة الكاتب أو المتكلّم" (دالامبير، بيير جيرو، الأسلوب والأسلوبية)

3- "الأسلوب هو طابع العمل اللغوي وخاصّيته التي يؤدّيها، وهو أثر عاطفي محدّد يحدث في نصٍّ ما بوسائل لغوية، وعلم الأسلوب يدرس ويحلّل وينظم مجموعة الخواصّ التي يمكن أن تعمل في لغة الأثر الأدبي ونوعية تأثيرها، والعلاقات التي تمارسها التشكيلات الفعالة في العمل الأدبي" (سيدلر).

---

1 Arrivé Michel. Postulats pour la description linguistique des textes littéraires. In: Langue française, N°3, 1969, p 4.

والترجمة مأخوذة من كتاب: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص48.

4- "الأسلوب هو شكل الملفوظِ الناتجُ عن اختيار أدوات التعبير، وتحدّده طبيعة المتكلّم أو الكاتب ومقاصده "(بيير جيرو، الأسلوبية).

5- "الأسلوب الأدبي كلُّ شكلٍ ثابتٍ فردي ذي مقصدية أدبية"(ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب).

6- "الأسلوب: محصّلة مجموعةٍ من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل"(أوهمان).

7- "مضانّ الأسلوب هي في الجانب المتحوّل عن اللغة، والمتحوّل عن اللغة في الكلام عديدُ الأشكالِ، فقد يكون تحوّلاً عن قاعدةٍ نحويةٍ أو بنية صرفيةٍ أو وجهة معنويةٍ، أو في تركيب جملةٍ، كما قد يكون التحوّل عن نسبة عامّةٍ في استعمال الظاهرة اللغوية في عصر من العصور أو يكون بشحنةٍ دلاليةٍ خاصّةٍ، أو بفقر خاصٍّ يلحق الظاهرة اللغوية في نوع من النصوص دون آخر أو في نوعٍ من الأغراض دون آخر" (محمّد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات).

8- "يمكن أن يعرّف الأسلوب بأنّه نتيجة مجموعةٍ من الاختيارات التي يجب أن يقوم بها كلّ خطابٍ، بين عددٍ معيّنٍ من الإمكانات المتاحة في اللغة، والاختلافات التي يدخلها بالعلاقة مع هذه الإمكانات"(ديكرو، المعجم الموسوعي الجديد لعلوم اللسان).

ونستطيع من خلال هذه التعريفات المختلفة والمتباينة أن نسجّل الملاحظات التالية:

1- تركّز التعريفات من 1 إلى 4 على الجانب العاطفي لظاهرة الأسلوب، فهو أثرٌ للأديب عموماً يتركه من خلال اختيارات معيّنةٍ في مستويات اللغة المختلفة، ويكون ذلك الأثرُ في العادة ذا طابعٍ عاطفي.

2- تركّز التعريفات من 5 إلى 8 على الجانب اللغوي لظاهرة الأسلوب، فتعبير الأديب عن عواطفه وأحاسيسه يظهر عبر اللغة التي يستعملها، وهو ينشئ اختياراته المختلفة المعبّرة عن عواطفه عبر مستويات اللغة المختلفة.

3- تركّز أغلب التعريفات على الخاصّية الأدبية للأسلوب، بمعنى أنّ محلّ البحث عن الأسلوب إنّما يكون في النصوص والأعمال الأدبية، مهما اختلفت أجناسها وأنواعها.

4- تشير خاصّية الاختيار التي يقوم بها الكاتب أو الأديب إلى نوعين من الاختيار أو التحوّل (في مصطلح الطرابلسي)، تحوّل شائعٌ مشترك بين مجموعةٍ من النصوص أو الأدباء أو الأجناس (يشير إلى خاصّية التكرار)، وتحوّل خاصّ نادراً ما يحصل ويكون خروجاً عن المتآلف عليه والمشترك في النصوص أو لدى الأدباء (يشير إلى ظاهرة الانزياح أو العدول).

المحاضرة الثانية:

الأسلوبية التعبيرية

صار من المعروف أنّ الأسلوبية قد ارتبطت في نشأتها كعلمٍ قائمٍ بذاته باسم "شارل بالي" (1865– 1947)، وكان تلميذًا لدي سوسير وأحد الذين نشروا محاضراته (1916)، كما أنّه ترك أكثر من كتابٍ لعلّ أهمّها كتابه "دراسة في الأسلوبية الفرنسية"(1902– 1909)، وقد عُرفت الأسلوبية التي بحث فيها بالأسلوبية التعبيرية، فما هي؟ وما المقصود بها؟ وما المفاهيم التي قدّمها من خلالها؟.

1 - موضوع الأسلوبية عند "شارل بالي":

لفهمِ المقصود من الأسلوبية التعبيرية يمكن أن نأخذ تعريف "شارل بالي" المشهور للأسلوبية الذي يقول فيه: «تدرس الأسلوبية ظواهر التعبير الكامنة في اللغة من جهة محتواها العاطفي، أي التعبير عن ظواهر الحساسية بواسطة اللغة، وفعل الظواهر اللغوية في الحساسية»[1]، إذن فموضوعها عند "بالي" هو الظواهر التعبيرية المشحونة عاطفياً، لكن ليس باعتبارها أسلوبَ فردٍ بعينه، وإنّما اللغة كما يتكلّمها أصحابها، ولذلك سمّيت أسلوبيته بالتعبيرية، لأنّها تدرسُ المحتوى العاطفي أو الانفعالي للغة، يقول أصحاب المعجم الموسوعي الجديد لعلوم اللغة: «أراد بالي أن يقوم بأسلوبية للكلام عموماً، وليس للآثار الأدبية، وانطلاقاً من فكرة أنّ اللّغة تعبّر عن الفكر والأحاسيس، اعتبر أنّ التعبير عن الأحاسيس يشكّل الموضوع الأنسب للأسلوبية»[2].

ويرى بالي أنّ لهذا المحتوى العاطفي أو الانفعالي وجهيْن: فهو محتوى عاطفي طبيعي من جهة، وهو محتوى إيحائي مرجعي من جهة أخرى[3]، أمّا المقصود بالمحتوى العاطفي الطبيعي فهو أن يوجد توافقٌ بين الشكل اللغوي والمضمون الفكري، يعبّر من خلالها الشكل اللغوي طبيعياً عن الأفكار، مثل أن يعبّر التصغير مثلاً عن الاحتقار، أو أن يعبّر شخصٌ عن عاطفته في مقام الشفقة بواسطة الحذف أو التعجّب كأن يقول "مسكين"، عوضاً عن قوله "لقد دهسته سيارةٌ فأردته قتيلاً".

1 Charles Bally, Traité de stylistique française, p 16.
2 Oswald Ducrot & Jean-Marie Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p 182.
3 Ibid, p 182.

وأمّا المحتوى الإيحائي أو المرجعي فالمقصود به هو القيمة الرمزية للظواهر التعبيرية، أي كيف توحي بعض الظواهر اللغوية عن الوسط الاجتماعي الذي تنتمي إليه تلك الظواهر، ويرى بالي أنّ أبرز الظواهر الموحية بالوسط هي اللغة المكتوبة أو اللغة العلمية أو العامّية.

2- طريقة التحليل الأسلوبي:

يقترح شارل بالي بعض الخطوات التي على أساسها تتم الدراسة الأسلوبية للتعابير ومحتوياتها العاطفية، وتتمثّل أولى تلك الخطوات في ضبط حدود الظاهرة التعبيرية في الكلام المدروس (Délimitation)، وقد تكون تلك الظاهرة كلمة أو تركيباً أو جملة أو أكثر من جملة، أمّا الخطوة الثانية فتتمثّل في التعريف (Identification) ويحدّه بقوله "إنّ تعريف ظاهرة تعبيرية مّا يقتضي أن نضع في الحساب محيطها [اللغويّ]... وتتمثّل عملية التعريف في أن نوجد لكلّ عبارةٍ ندرسها مقابلاً لها يكون منطقيًّا خالصًا"[1]، ثمّ تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة وهي التحديد (Détermination) أي "تحديد هذه الخصائص العاطفية بالتمييز بين ما هو آثار عاطفية طبيعية، وما هو آثار إيحاء بالوسط [الاجتماعي]".

ويمكننا التمثيل بالجدول التالي الذي يضمّ بعض الظواهر التعبيرية العاطفية الموجودة في الاستعمال العادي للغة العربية، عبر الخطوات الثلاثة التي أشار إليها "بالي":

ضبط الظاهرة التعبيرية	ضبط الأدوات اللغوية المستخدمة في الظاهرة	التعريف أو المقابل المنطقيّ	تحديد الخصائص الانفعالية
1– البُرمة	وحدة معجمية في لغة مجموعة بدوية	القِدْر (في لغة القرآن)	الأثر الإيحائي: الانتماء إلى وسط اجتماعي معيّن (الوسط البدوي)
2– كثير الرماد	كناية	كريم (من الكرم)	الأثر الطبيعي: الإعجاب

1 Charles Bally, Traité de stylistiquefrançaise, p 30.

3- أولى اللئام كويفير بمعذرةٍ	التصغير	كافور (الإخشيدي حاكم مصر)	الأثر الطبيعي: التحقير
4- جزاءَ سنمّار	مَثَلٌ	"يضرب مثلا لسوء الجزاء"	الأثر الطبيعي: التأسّف عليه
5- ذئاب	استعارةٌ	الخبثاء	الأثر الطبيعي: الكراهية +الذمّ

المحاضرة الثالثة:

الأسلوبية البنيوية

1- عند جون كوهين:

عُرِفَ "جون كوهين" بكتابه المشهور "بنية اللغة الشعرية" وهو الذي أبرز فيه مجمل أفكاره الخاصّة بالأسلوبية البنيوية، وقد انطلق من تعريف الوظيفة الشعرية التي رأى أنّها مقصورةٌ على الشعر دون سواه (على عكس جاكبسون) بقوله إنّ الفرق بين النثر والشعر: «لا يكمن في المادّة الصوتية ولا في المادّة الإيديولوجية، بل يكمن في نمطٍ خاصٍّ من العلاقات التي يقيمها الشعرُ بين الدالّ والمدلول من جهة، وبين المدلولات من جهة أخرى»[1]، ممّا يعني أنّ الكلام في القصيدة يعمل على صعيديْ الصوت والمعنى جدولياً ونسقياً معًا.

1–1: على صعيد الصوت: ينقسم الوجه الصوتي في الكلام الشعري عند كوهين إلى نغمٍ وإيقاعٍ ووزنٍ ويعمل في النصّ جدولياً ونسقياً.

1–1–1: جدولياً:

أولاً: النغم (ظاهرة الجناس): تقوم اللغة على مبدأ الاختلاف الصوتي في السلسلة الكلامية، فكلّ فونيمٍ يقوم بوظيفة تمييزية هي التي على أساسها تكون لكلّ كلمة بنيتها الصوتية (والدلالية أيضاً) التي تميّزها عن غيرها من الكلمات استبدالياً، وتركيبياً داخل الجملة أو النصّ ممّا يجعل العبارات واضحةً لا لبس فيها، ولكن في الشعر نجد عكس هذا النظام الصوتي الموجود في النثر أو الخطاب في اللغة اليومية، إذ ينبني الخطاب الشعري على ترديد الفونيمات نفسها أو ما يشابهها لتوفير خاصية الجناس (Homophonie) الذي يرى "كوهين" أنّه جوهر الشعر: «إنّ الفونيم الذي يشغل في اللغة وظيفة المخالفة fonction de différenciation يشغل في الشعر وظيفة مناقضة لذلك تمام المناقضة هي وظيفة اللبس ونزع خاصية المخالفة، إذ في حين يجنّب النثر نفسه قدر المستطاع تقريب المتجانس من الأصوات في خطابه، يعمل الشعر لا على التقريب بينها فحسب، وإنّما يعمل أيضاً على وضعها في المكان نفسه من الخطاب».

---

1 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمّد الولي ومحمّد العمري، ص191.

ثانياً: الإيقاع والوزن: يرى "كوهين" أن النثر Prose مشتق من قولهم في اللاتينية Prosus أي التقدّم الخطّيّ، في حين أنّ البيت Vers مشتقٌّ من اللغة نفسها من Versus أي العودة المنتظمة[1]، ومدار هذه العودة المنتظمة في الخطاب الشعري على الإيقاع والوزن، ففي حين تكون كلّ جملة أو عبارة نثرية خاضعةً لإيقاع مختلفٍ عن إيقاع جارتها، تكون كلّ جملة أو عبارة في الشعر خاضعةً للإيقاع نفسه الذي لجارتها، فالبيت الشعريّ الذي على بحر المتقارب مثلاً يُعمَدُ فيه إلى ترجيع نفس الصورة الإيقاعية والوزنية خاصّة وهي (فَعُولُنْ ×8) على مدى السلسلة الصوتية بأكملها، بحيث يتغيّر المعنى في كلّ مرّة ولكنّ الإيقاع يبقى واحداً، وبعبارة "كوهين" إنّ المدلول يتغيّر ويختلف في السلسلة الكلامية فهو: أ.ب.ج.د.إلخ، ولكنّ الدالّ يظلّ هو نفسه يعود كلّ مرّةٍ داخل السلسلة الصوتية فهو: أ.أ.أ.أ، مثال ذلك قول الخنساء في رثاء أخيها صخرٍ:

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ   شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ لِلْجَيْشِ جَرَّارُ

نَحَّارُ رَاغِيَةٍ مِلْجَاءُ طَاغِيَةٍ   فَكَّاكُ عَانِيَةٍ لِلْعَظْمِ جَبَّارُ

مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ / مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ   مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ / مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

ففي كلا البيتين يتغيّرُ المدلول في كلّ مرة: (حمّال/ هبّاط/ شهّاد/ نحّار/ ملجاء/ فكّاك+ ألوية/ أودية/أندية/راغية/طاغية/عانية)، ولكنّ الدالّ الصوتي الإيقاعي والوزني يظلّ هو نفسه وهو وزن بحر البسيط من خلال عودة "مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ ":

حَمَّـــــالُ أَلْـــوِيَةٍ / هَبَّـــاطُ أَوْدِيَـةٍ   شَهَّــادُ أَنْـدِيَـةٍ / لِلْجَيْـشِ جَــرَّارُ

مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ / مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ   مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ / مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

وكذلك الإيقاع يعود من خلال عودة المقاطع نفسها في انغلاقها وانفتاحها مشكّلة كلمات ذات صيغ متشابهة: حمّال/ هبّاط/ شهّاد + ألوية/ أودية/ أندية، وهذه الكلمات مندرجة بدورها في عبارات متماثلة تعود بانتظامٍ حمّال ألوية/ هبّاط أودية/ شهّاد أندية ...، وتحصل بناءً على هذا خاصّيّة وحدة الوزن وخاصّية وحدة الإيقاع وهما اللتان لا توجدان في النثر.

1جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمّد الولي ومحمّد العمري، ص52.

2-1-1: **نسقياً**: تتجاوز عودة الدالّ الصوتيّ (النغم والإيقاع والوزن) العبارة الواحدة والبيت الواحد في القصيدة ليشمل الخطاب كلّه من أوّله إلى آخره، وهذا الدالّ يتردّد في فضاء القصيدة عبر ثلاثة أشكال هي:

- الشكل النغمي القائم على الجناس Homophonie
- الشكل الوزني القائم على عودة التفعيلة نفسها Homométrie
- الشكل الإيقاعيّ القائم على عودة الإيقاع نفسه Homorythmie

فإذا أضفنا إلى ذلك ظاهرة ترديد المدلول نجد الشعرَ يقوم أساساً على ظاهرة الترديد تركيبياً: أي ترديد الأشكال المختلفة التي تتضافر فيما بينها لتنشئ شكل الأشكال، وهو ما تنشأ عنه جمالية الخطاب الشعري.

2-1: **على صعيد المعنى**: ويكون جدولياً ونسقياً.

1-2-1: **جدولياً**: وهو فيما يخصّ العلاقة بين الدالّ والمدلول، مثاله بيت المتنبي:

وَأَقْبَلَ يَمْشِي فِي البِسَاطِ فَمَا دَرَى ... إِلَى البَحْرِ يَسْعَى أَمْ إِلَى البَدْرِ يَرْتَقِي

ففي كلمة "البحر" نجد:

- الدالّ وهو لفظ "البحر"
- المدلول1: النهر العظيم ذو الماء المالح المشتمل على الخيرات الكثيرة.
- المدلول2: عظمة الممدوح (سيف الدولة) وشدّة كرمه.

لقد فرّقت الصياغة الشعرية في هذا البيت بين الدال ومدلوله الأوّل، وأرْست علاقة جديدة بين الدال ومدلوله الثاني (ونفس الشيء بالنسبة للفظ "البدر")، فالعلاقة بين الدال والمدلول الأوّل هي علاقة اعتباطية ناشئة عن مواضعة، أمّا العلاقة بين الدال والمدلول الثاني هي علاقة مبرّرة (ما يجمع

بين البحر والممدوح عظمة كليهما وكرمه)، وهكذا يظهر الفرق بين النثر واللغة العادية من جهة والشعر من جهة أخرى؛ في أنّ النثر واللغة العادية يقومان على الاعتباطية في العلاقة بين الدال والمدلول، بينما يقوم الشعر على علاقة التبرير Motivation في الجمع بين الدال والمدلول، ويشير "كوهين" إلى فرقٍ آخرَ بين الدلالة التصريحية المطابقة La dénotation وهي الناشئة عن أصل الوضع، والدلالة الحافّة La connotation التي تنشأ على أساس اللزوم، "إذ يقوم الكلام الشعريّ بقتل الكلام على صعيد الدلالة التصريحية، وبعثه على صعيد الدلالة الحافّة"[1]، فاللازم عن لفظ البحر في بيت المتنبي مثلاً ناشئٌ عن معناه من السعة والعظمة والسخاء، وهكذا فالشعر مرورٌ من الدلالة التصريحية إلى الدلالة الحافّة، وإذا كانت العلاقة بين الدال والمدلول الأوّل قائمة على المفهوم؛ فإنّها بين الدال والمدلول الثاني قائمةٌ على الصورة، والشعر مرورٌ من المفهوم إلى الصورة.

1-2-2: نسقياً: إذا كان الكلام الشعري قائمًا من جهة المعنى على العدول (الانزياح) جدولياً، فإنّه على الصعيد النسقي قائمٌ على الترديد أي ترديد المدلولات وترديد العلامة نفسها:

أولاً: ترديدالمدلولات: يعتبر "كوهين" النص الشعري لعبة ترادفٍ متواصلٍ إذ تردّد في فضاء النص المدلولات نفسها ترديداً يذكّرنا بمبدأ التكافؤ أو التطابق عند "جاكبسون" وبمفهوم التشاكل Isotopie عند "غريماس" لولا أنّ طبيعة المدلولات المرجعة عند كوهين "إشجائية Pathétique" لا مفهومية[2] كما هو الشأن عند "جاكبسون" و"غريماس"، وتستمدّ هذه المدلولات طبيعتها المرضية من قيامها على الانزياح وعلى مبدأ الكلية أو نفي النفي (Négation de la négation).

ثانياً: ترديد العلامة: ويتعلّق هذا الأمر بتكرار العلامة أي عودة الكلمة نفسها مرتين أو أكثر في النص نفسه، وما أكثر ما تعود الكلمات وتتكرّر في الخطاب الشعري خاصّة، إذ هو قاعدة للخطاب الشعري في مقابل الخطاب النثري أو اللغة العادية، ومن هذا الجانب يظهر الانزياح باعتباره

---

1 عبد الله صولة، فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، مجلة: دراسات سيميائية أدبية لسانية، ص93.

2 المرجع نفسه، ص93.

خرقاً لقانون الإخبار الذي يتميّز به الخطاب النثري أو اللغة العادية، وتنشأ عن ذلك الوظيفة الجمالية للخطاب الشعري باعتباره يمتاز بالترديد والتكرار حتّى يصير "كلاماً سامياً"(Le haut langage).

2- عند ميشال ريفاتير:

يرتبط منهج الأسلوبية البنيوية باسم "ميشال ريفاتير Michel Riffaterre"، وقد كانت المفاهيم التي جاء بها تندرج ضمن نظرية عامّة هي "نظرية الإخبار"، وحاول التركيز على مفهوم البنية من خلال مفهوم النسق أو النظام، فهو كغيره من البنيويين المتأثّرين بدي سوسير يرى بأنّ اللغة عبارةٌ عن نظامٍ، لكنّه مثل جاكبسون مثلاً، حاول الانتقال من البنيوية باعتبارها تفكيراً نظرياً إلى كونها إجراءً تطبيقياً، ويتجلّى ذلك في مجموعةٍ من الكتب التي ألّفها، والتي كان لها الفضل في صياغة نظريّة أسلوبية بنيوية.

يتجلّى موضوع الدراسة الأسلوبية عند "ريفاتير" في النصّ الأدبي الراقي، وهو ما يؤكّد الفرق بين أسلوبية بالي من جهة، وأسلوبية سبيتزر أو ريفاتير من جهة أخرى، أي أنّ ريفاتير أحد المنظّرين الذين حاولوا أن يحدّدوا موضوع الدراسة الأسلوبية في النصوص الأدبية، ومن المنطلقات النظرية الأساسية التي حدّد من خلالها ريفاتير النصوص الأدبية اعتبارها نوعاً من التواصل لا يختلف عن أنواع الخطاب الأخرى، غير أنّ الميزة في هذه النصوص هي ما تتركه في المتلقّي وإمكانية أن يكون ذلك بقصد الكاتب، ثمّ هو يولي المتلقّي مكانة أساسيةً في عملية التواصل هذه، يقول: «إنّ الظاهرة الشعرية من حيث هي ظاهرة لغوية ليست الرسالة فحسب (أي القصيدة)، وإنّما عملية التواصل كلها، لكنّها عملية مخصوصة جداً، ذلك أنّ المتكلّم أي الشاعر ليس حاضراً، وكلّ محاولةٍ لإقحامه من شأنها أن تحدث اضطراباً، والنكتة في ذلك أنّ ما نعرفه عن هذا الشاعر نعرفه إمّا من التاريخ فهو من خارج الرسالة، أو من عقلنتنا نحن لهذه الرسالة، وبتشويهنا لها، وإنّما المعوّل في الدرس الأسلوبي على الرسالة ومتلقّيها (أي القارئ) لا غير»[1]، وقد اقترح مفهوم "المفاجأة" ليؤكّد دور المتلقّي في اكتشاف أسلوب النصّ وأثره عليه، فما كان مفاجئاً للمتلقّي إمّا أن يكون مخيّباً لأمله، وإمّا أن يكون تامًّا مظهراً لإعجابه.

1 Michel Riffaterre, Essais de stylistique structurale, p 326.

وقد انطلق في صياغة نظريته الأسلوبية من مسألتين اثنتين هما: تعريف الأسلوب، وطريقة التحليل الأسلوبي، أمّا الأسلوب فقد عرّفه بقوله: «إنّه تضخيمٌ تعبيريٌّ أو عاطفيٌّ أو جماليٌّ يضاف إلى البلاغ الذي تحمله البنية اللغوية»[1]، أو بقوله في تعريف آخر: «كلّ شكلٍ مكتوبٍ علّق به صاحبه مقاصد أدبية»[2]، أي أنّ الأسلوب عنده عبارةٌ عن سَنَنٍ إضافي يركّب فوق الكلام العادي الذي هو كلام النص، ولذلك كان مفهوم الانزياح أو العدول لديه مفهوماً أساسياً، غير أنّه ربطه بالنصّ لوحده، فالانزياح إذا وُجِدَ فإنّه يوجد داخل نصٍ لغويٍّ واحدٍ، ويكون ذلك الانزياح خروجاً عن القواعد اللغوية المتّبعة في ذلك النص، وقد أتى لتوضيح هذه الفكرة بمفهوم التصرّف الأسلوبي، وهو مجمل السياق اللغوي المألوف والعنصر غير المنتظر الذي يخرقه.

أمّا طريقة التحليل الأسلوبي، فقد ميّز بين مرحلتين اثنتين في دراسة كلّ نصٍّ:

- المرحلة الأولى أو القراءة الأولى ويسمّيها مرحلة اكتشاف الظواهر وتعيينها، وهي تسمح للقارئ بإدراك وجوه الاختلاف بين بنية النصّ والبنية اللغوية النموذجية فيدرك الانزياحات.
- المرحلة الثانية أو القراءة الثانية ويسمّيها مرحلة التأويل والتعبير، وتأتي تبعاً للمرحلة الأولى ضرورةً، ويستطيع القارئ من خلالها التعمّق في النص.

وليست هاتان المرحلتان إلّا مقدّمات للتحليل الأسلوبي، فهو في رأيه بحث تعيين واستصفاء واكتشاف لا غير، ولذلك يؤكّد على ما أشرنا إليه من قبل في كلّ تحليل أسلوبي، أنّ محلّ الاهتمام هما النصّ والقارئ، وهو بذلك يعتبر القارئ وسيلة مهمّة جدًّا بالنسبة للمحلّل الأسلوبي، فهو بردود فعله تجاه النصّ وبطرائق تجاوبه معه يقوده إلى المواطن البارزة فيه أو العدول الذي هو جوهر الأسلوب، وهو يسمّي هذا القارئ "بالقارئ المخبر أو النموذجي"، واعتماد المحلّل الأسلوبي عليه يقيه من شرّ السقوط في الانطباعية والذاتية، لذا كان هدفه "تحويل الانفعال بالأسلوب من حكم الذاتيّ الفرديّ إلى وسيلة تحليل موضوعية قادرة على تعيين الثوابت وراء اختلاف الآراء والأحكام"، ولكن دون أن

1 Michel Riffaterre, Essais de stylistique structurale, p 30.
2 Ibid, p 29.

الترجمة مأخوذة عن: حمادي صمود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص138.

يلجأ المحلّل إلى إطلاق الأحكام، فهذا حسب رأي ريفاتير من مشمولات النقد الأدبي، أمّا الأسلوبية فهي مقصورةٌ على الوصف المجرّد.

ويطرح "ريفاتير" مفهومًا مهمًّا هو مفهوم السياق، ويختلف السياق الأسلوبي عن السياق اللغوي من جهة أنّه لا يقوم على الترابط والتتابع، وليس دوره ضبط المعنى وبيانه أو الإضافة إليه، فالميزة الأساسية لهذا السياق هي كونه أنّ الخروج عنه لافت للنظر، يقول في تعريفه: «السياق الأسلوبي هو نموذج لسانيٌّ مقطوعٌ بواسطة عنصر غير متوقّعٍ، والتناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبّه الأسلوبي»[1]، ومن وجهة النظر البنيوية تكمن القيمة الأسلوبية في العلاقة بين هذين العنصرين المتضادّين (سياق متوقّع وعنصر غير متوقّع)، بحيث لا يحصل تأثير إلّا باجتماعهما، يقول "ريفاتير": «وليس الشأن في الأسلوب، بناءً على هذا التصوّر، توالي المجازات والصور وفنون القول المختلفة والإلحاح على بعض أجزاء النصّ، وإنّما يولّد بنية النصّ الأسلوبية اشتمال المقطوعة أو الفقرة على عناصر وقع إبرازها والإلحاح عليها تُقَابِلُهَا عناصرُ لم يقع إبرازها والإلحاح عليها، ...، ونعني بهذا الثنائيات التي تكون قطباها (السياق وما يضادّه) في علاقة لا تنفصم»[2].

وبهذا، فكلّ حدثٍ أسلوبيٍّ يقوم على عنصرين هما: السياق والتضادّ القاطع لنسقه العادي، ويقسّم "ريفاتير" السياق إلى نوعين:

- سياق داخل الوحدة الأسلوبية أو الحدث الأسلوبي وهو السياق المولّد للتضادّ أو الخلاف ويسمّيه السياق الأصغر(يمكن أن ينحصر في وحدة لغوية واحدة).

- سياق خارج الوحدة الأسلوبية ويسمّيه السياق الأكبر، وهو جزء الكلام الواقع مباشرة قبل بروز الحدث الأسلوبي ووظيفته الأساسية تأكيدُ مفهوم التقابل وتقويته أو إضعافه، والسياق الأكبر نوعان:

1ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد لحمداني، ص56.

2 M. Riffaterre, Essais de stylistique structurale, p 65.

عن: حمادي صمود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص170.

- نوعٌ يقع فيه قطع النموذج بعنصر غير متوقّع ثمّ يعود الكلام إلى نظامه،

(سياق ـــــــــــــــــــ وجه أسلوبي ـــــــــــــــــــــــ سياق)

- نوع ثانٍ مشتق من السابق يتشبّع على أساسه الحدث الأسلوبي فيتكوّن سياق جديد، يمكن أن يكون سياقاً أيضاً فيتمّ مجيء عنصر غير متوقّع آخر بالنسبة إليه،

(سياق ـــــــ وجه أسلوبي ـــــــتحوّل الوجه إلى سياقٍ جديد ـــــــــ وجه أسلوبي).

المحاضرة الرابعة:

الأسلوبية الإحصائية

بعد أن تطرّقنا في محاضرات سابقةٍ إلى أهمّ النظريات الأسلوبية التي اشتهر أصحابها، ننتقل في هذه المحاضرة إلى البحث في أسلوبيةٍ أخرى، وُجدت فيها بعض النظريات، وجعلتها تشتهر أيضاً من جهة تطبيقاتها، هي الأسلوبية الإحصائية.

يعني الإحصاء لغةً إدراك العدد، يقال "أَحْصَيْتُ الشَّيءَ عَلِمْتُهُ، وأَحْصَيْتُهُ عدَدْتُهُ"[1]، وأصله في الاصطلاح أن يكون ذا علاقة بحسابِ تردُّداتٍ معيَّنةٍ لظواهرَ معيَّنةٍ داخلَ وسطٍ معيّنٍ، لذلك نستطيع ربطه بتأثّر الأسلوبيين باللسانيات عموماً، وبالمنهج الوصفي فيها، فاللسانيات تحاول دراسة اللغة عبر وصفها، ولا يكون الوصف إلّا باتّباع منهج الإحصاء، أمّا في الأسلوبية فإنّ المحلّل يمكنه الوصول إلى بعض النتائج في تحديد الظاهرة الأسلوبية أو الحدث الأسلوبي إذا قام بعملية إحصاء معيّنةٍ في إحدى المستويات اللغوية، يقول مُحَمَّد الهادي الطرابلسي: «قوام الإحصاء التجريد الكامل لمختلف استعمالات الظاهرة اللغوية في النصّ المدروس، فتبويبها، فتصنيفها، حسب أولويات المفعول إعدادًا لاستنطاقها، ولا يحتاج أمرُ الإحصاء إلى مزيد تحليل رغم تنوّع مظاهره وتعدّد شروطه، ...، ولقد غدا الإحصاء طريقةً في العمل لا يستغني عنها أيُّ علمٍ، وبعضها لا يكاد يعتمد سواها»[2].

ويمكننا أن نشير ههنا إلى إسهامات الأسلوبيين في إطار الاعتماد على المنهج الإحصائي عبر نظريتين: الأولى نظرية "كونراد بيرو Conrad Bureau"، والثانية إسهامات "سعد مصلوح" التي عرضها في أكثر من كتاب.

1 - أسلوبية "كونراد بيرو":

انطلق "بيرو" في طرح نظريته من نقد فكرة الانزياح، ولذلك عرّف الأسلوب بقوله: «الأسلوب طريقةٌ في إقحام البعد الذاتي على عملية الهيكلة اللغوية سواءٌ كانت هذه الهيكلة لغاية جمالية أو غيرها»[3]،

1 الفيومي، المصباح المنير، ج1 ص140، وابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ج14 ص184.

2 مُحَمَّد الهادي الطرابلسي، في منهجية الدراسة الأسلوبية، ص222.

3 Conrad Bureau, Linguistique fonctionnelle et stylistique objective, p13.

أي أنّ الكاتب يقوم بإخضاع اللغة من حيث هي قواعد مجرّدة نظرية، ويكون الأسلوب بهذا التصوّر عمليّةَ مرورٍ عبر اللغة المشتركة من معجمٍ وقواعد تركيبيةٍ نظريةٍ، إلى القول المتفرّد الملموس في شكل جمل حقيقية ملموسة، ميزتها الأساسية التكرار والترجيع والإطناب، وعلى هذا فهو ينتقد فكرة الانزياح من جهة، وفكرة الاختيار من جهةٍ أخرى، (اللغة مجموعة إمكاناتٍ متاحةٍ)، وليس الأسلوب انحرافاً أو مفاجأة تحدث للقارئ، بل هو عبارةٌ عن استخدامٍ لغويٍّ مطّردٍ في المستويات اللغوية المتعدّدة.

ثمّ ينتقل "بيرو" لتعريف الأسلوب ثانيةً بتصوّر آخر هو قوله: «إنّ الأسلوب سَنَنٌ إِضَافِيٌّ يركّب على سنَنٍ عاديٍّ هو اللغة»، إذن فهناك في رأيه نوعان من السَّنَن: سنن ما قبليّ (Code à priori)، وسنن ما بعديّ (Code à postériori)، ويتمثّل السنن الماقبلي عنده في اللغة معجمها وقواعدها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، أمّا السنن المابعديّ فهو تلك الهيكلة اللغوية التي تحدثها الذات المنشئة انطلاقا من القواعد المسبقة، والحدث الأسلوبي إنّما هو السنن المابعدي أي باعتباره إدخالاً للذات في السنن الماقبلي وتشكيله بواسطة العمل أو الأثر، غير أنّ ميزة هذا العمل إنّما هي كونه حدثا متراكما يساعدنا الإحصاء على دراسته.

ولتوضيح مدخل العملية الإحصائية في الدراسة، يقترح "بيرو" طريقة للتحليل هي كالتالي:

1 - 1 - تحديد البنية التركيبية:

أ- تحديد الطول: يتزايد طول الجمل والتراكيب بتزايد عدد الدوالّ فيها، ولذلك فهو يقترح حساب عدد الكلمات في التراكيب عبر مفاهيم "المركّبات Syntaxèmes" و"المونيم Monème".

ب- تحديد التعقيد (La complexité): ومدار التعقيد هنا على التوسعة والتفرّع، فبدون هذه الظاهرة النحوية تكون الجمل كلّها ذات نواة إسنادية بسيطةٍ كالفعل والفاعل والمبتدأ والخبر، لكن بفضل التوسّع عن طريق الأسماء الموصولة وحروف الجرّ والعطف والمفاعيل بأنواعها تكون الجملة على درجة كبيرة من التعقيد.

1 - 2- تحديد البنية الإيقاعية:

الإيقاع هو الطريقة المتّبعة في توزيع الجمل من حيث طولها، فهو يبرز ظاهرة التشابه أو انعدامه في مستوى الدوالّ، وذلك بتقسيم الجملة إلى مجموعة من المركّبات معتبرين في تقسيمنا إيّاها مقياس المعنى، يقول "بيرو": «يكفي أن نقرأ السنن التركيبي قراءة سليمةً ليبرز لنا السنن الإيقاعي الإضافيّ»[1].

1 - 3- تحديد العلامة المميّزة:

إنّ تحديد الخصائص التركيبية والإيقاعية في النصّ يقودنا إلى تحديد الغرض المهيمن فيه، وإلى علامته المميّزة، ذلك أنّ الوظيفة التي تقوم بها خصائص النص التركيبية والإيقاعية، إنّما هي إبراز الكلمة التي عليها مدار اهتمام الكاتب في النصّ، يقول "بيرو": «من مهامّ التحليل الأسلوبي الظفر بهذه العلامة المميّزة وتحديدها، لكن لما كان ذلك ينبغي أن يكون بطريقة موضوعية لزم أن تكون الوسيلة في هذا التحديد حضور ضروب السنن الإضافية [التركيب والإيقاع]، ...، إنّ خصائص الأثر الشكلية تشير في الوقت نفسه إلى الأهمّية التي يعلّقها الكاتب على عنصر حاضرٍ في النصّ أي على علامة مخصوصة ... وتبرز هذه الأهمّية من خلال الترديد التركيبي والإيقاعي»[2]، إنّ العلامة المميّزة التي يتشكّل حولها تركيب النصّ وإيقاعه هي الكلمة أو الكلمات التي تربطها بالكاتب علاقة ذاتية خاصّة، وهو قد عمل في اللغة وصاغ تراكيبه وإيقاعاته من أجل إبرازها والتعبير عنها.

2- الأسلوبية الإحصائية عند سعد مصلوح:

ترجع أهمّية الإحصاء عند سعد مصلوح في قدرته على التمييز بين السمات أو الخصائص اللغوية التي يمكن اعتبارها خواصّ أسلوبية، وبين السمات التي ترد في النصّ وروداً عشوائياً، أي أنّه ليس كلّ انحرافٍ يمكن أن يعدّ خاصّة أسلوبية هامّة، بل لابدّ لذلك من انتظام الانحراف في علاقاته بالسياق، يقول سعد مصلوح: «يمكن إيجاز أسس النظرية الإحصائية للأسلوب في قضية بسيطة فحواها أنّ الأسلوب هو مفهوم احتمالي، ويتميّز المفهوم الاحتمالي بسمتين أساسيّتين: **أولاهما** أنّه في

---

1 Conrad Bureau, Linguistique fonctionnelle et stylistique objective, p 111.
2 Ibid, p 114.

عالم الاحتمال لا يكون وقوع الظاهرة (أ) محكوماً تماماً بوجود الشرط (س)، ففي وجود الشرط (س) ستقع الظاهرة (أ) باحتمال معيّن، والظاهرة (ب) باحتمال معيّن، والظاهرة (ج) باحتمال معيّن وهكذا، ...، وحتّى يكون احتمال وقوع الظاهرة (أ) كبيراً أي عندما تقترب قيمة الاحتمال الأوّل من الواحد الصحيح فإنّ وقوع الظواهر الأخرى (ب) و(ج) ...إلخ، لا يمكن استبعاده، ويمكن توقّع حساب حدوث كلّ ظاهرة من الظواهر (أ) و(ب) و(ج) في وجود الشرط (س) بواسطة التوزيع الاحتمالي. و**ثانية** السمتين للمفهوم الاحتمالي أنّ التوزيع الاحتمالي يصف لنا توقّع حدوث الظواهر (أ) و(ب) و(ج) في طاقم كامل من الأحداث وهو ما يسمّى في علم الإحصاء بالمجتمع، أو باستخدام مجموعات غير مثالية أو محدودة نوعاً وهو ما نسمّيه بالعيّنات، ومثال الأوّل أن يحسب التوزيع الاحتمالي لخصائص أسلوبية معيّنة في مسرحية أو رواية أو نتاج كامل لمؤلّف مّا، ومثال الثاني أن تستخدم عيّنات عشوائية أو مشروطة من هذه الأعمال»[1].

ويشير سعد مصلوح إلى أنّ الإحصاء ليس إلّا معياراً يستخدم للقياس، وليس من مهمّته أن يحدّد السمات الجديرة بأن تحصى، إذ هو لا يعطي للمحلّل أكثر من قيمة عددية بقطع النظر عمّا يقابل هذه القيمة من وحدات لغوية، وعلى هذا فإنّ الدراسة الأسلوبية تستعين بالإحصاء في المجالات التالية[2]:

أوّلا: المساعدة في اختبار العيّنات اختباراً دقيقاً بحيث تكون ممثّلة للمجتمع المراد دراسته.

ثانيا: قياس كثافة الخصائص الأسلوبية عند مؤلّف معيّن أو في عمل معيّن، فإذا أردنا مثلاً قياس كثافة الجمل الاسمية أو الفعلية في نصٍ مّا قمنا بقياس عدد مرّات تكرار الجمل الاسمية أو الفعلية في النص، ثمّ نقسّمها على طول النصّ مقدَّراً بعدد الكلمات أو الجمل، وبذلك يمكننا تحديد كثافة الجمل الاسمية أو الفعلية أو أيّ خاصّية أسلوبية أخرى.

1 سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص52.

2 المرجع نفسه، ص 57-58.

ثالثاً: قياس النسبة بين تكرار خاصّية أسلوبية وتكرار خاصّية أخرى للمقارنة بينهما، ويتمّ حساب النسبة بإحصاء عدد مرّات تكرار الخاصّية الأولى وعدد مرّات تكرار الخاصّية الثانية في نصّ من النصوص، وقسمة حاصل جمع تكرار إحداهما على حاصل جمع تكرار الأخرى.

رابعاً: قياس التوزيع الاحتمالي لخاصّية أسلوبية معيّنة.

ومن الناحية التطبيقية أيضاً، يقترح سعد مصلوح التمييز بين المتغيّر الأسلوبي والخاصّية الأسلوبية، «فالمتغيّرات الأسلوبية هي مجموعة السمات اللغوية التي يعمل فيها المنشئ [المؤلّف] بالاختيار أو الاستبعاد، وبالتكثيف أو الخلخلة، وباتّباع طرق مختلفة في التوزيع ليشكّل بها النصّ»[1]، أمّا الخاصّية الأسلوبية فهي ميزةٌ تعبّر عن انتقال المتغيّر الأسلوبي من القوّة إلى الفعل أي الإنجاز، وقد اقترح سعد مصلوح أنواعاً من المتغيّرات **على سبيل التمثيل بها**، وهي التي رأى بأنّها الأكثر التصاقاً بعملية الإحصاء، أي يمكن أن تجرى عليها عملية الإحصاء، وهذه المتغيّرات هي[2]:

1- **المتغيّرات الشكلية**: - الشكليات التي تميّز الشعر عن النثر (قسمة البيت إلى شطرين)، - توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة، - الأشكال الهندسية البديعية، - نظام الفراغات على الصفحة، - فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف، - طول الكلمة (مقيساً بعدد الحروف)، - طول الجملة (مقيساً بعدد الكلمات)، - أنواع من الجناس، - علامات الترقيم.

2- **المتغيّرات الصوتية**: - التوزيع النسبي لعدد الأصوات، - أنواع المقاطع، - أشكال الوزن العروضي، - قافية الصدارة، - الجناس بأنواعه، - السجع، - نظم التقفية ومنها مثلاً (القافية التامة، لزوم ما لا يلزم)، - القلب، - تماثل الصوامت أو الصوائت.

3- **المتغيّرات الصرفية**: - أقسام الكلم (الاسم، الفعل، الصفة، الظرف)، - الصيغ الصرفية (الأفعال، الجموع، المصادر، المشتقّات)، - مبتكرات الصيغ.

1 سعد مصلوح، الدراسة الإحصائية للأسلوب، مجلة عالم الفكر، ص108.

2 نفسه، ص109-112.

4- **المتغيّرات التركيبية**: - المركّبات النحوية (الظرفي، النعتي، البدلي، العطفي)، - أنواع الجمل (اسمية، فعلية، بسيطة، مركّبة، إنشائية، خبرية)، - مباحث علم المعاني في البلاغة، - المجاز بالحذف، - البعد التركيبي من المقابلة، - البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز، - مباحث بديعية (اللف والنشر، الجمع والتفريق والتقسيم، العكس، ردّ الأعجاز على الصدور، إلخ).

5- **المتغيّرات الدلالية**: - الوحدات المعجمية، - السجل المعجمي، - المفردات القديمة، - المفردات الدخيلة، - المولّد، - الثروة اللفظية، - البعد الدلالي للاستعارة، - البعد الدلالي للتشبيه والمجاز والكناية، - البعد الدلالي لبحوث من البديع (الطباق، مراعاة النظير، التناسب، الإرصاد، المشاكلة، التورية، الاستخدام، التجريد، المبالغة، الإغراق والغلوّ، ...إلخ).

6- **من متغيّرات ما فوق الجملة**: - طول الفقرات وتوزيعها، - الربط بين الجمل، - البنية المنطقية للنص، - وسائل التماسك في النصّ، ...

المحاضرة الخامسة:

الأسلوبية النفسية

إذا كانت أسلوبية "شارل بالي" المعروفة بالتعبيرية قد أتاحت لنا النظر في أسلوبية خاصّة باللغة وبالمجتمع الذي يتكلّم هذه اللغة، فإنّ أهمّ مميّز أتى بعد نظريّة بالي هو ما سمّي بأسلوبية الفرد أو الأسلوبية النفسية، والتي عُرفَتْ باسم أحد روّادها وهو النمساوي "ليو سبيتزر Leo Spitzer" (1887– 1960)، وقد ابتدأت دراسته بالعلاقة بالفيلولوجيا التاريخية المثالية (أو الهرمنوطيقا)، ليتحوّل تركيزه فيما بعد إلى الأسلوبية باعتبارها دراسةً لسانية للنصوص الأدبية أو الآثار كما هو معروف في مصطلحاته.

ونستطيع القول بأنّ أسلوبية سبيتزر أتتْ لتجيب عن سؤالين اثنين في دراسة الأدب هما[1]:

- كيف حدث الأسلوب؟ والمعوّل في الإجابة عن ذلك على اللسانيات وتحديداً علم اللغة التاريخي الذي ينظر إلى الكلمة في النصّ على أنّها حمّالة حضارات وليست مجرّد أصوات وبنى صرفية.

- لماذا كان ذلك كذلك؟ (والمعوّل في الإجابة عنه على المعارف الأدبية والنفسية والثقافية وغيرها)

ولذلك ربط سبيتزر الدراسة الأسلوبية لظاهرة الانزياح في لغة الأديب بالانزياح في مستويات أخرى مثل نفسيّته أو مجتمعه أو عصره، يقول: «الخصّيصة المميّزة للنص إنّما هي انحرافٌ أسلوبيٌّ فرديٌّ ... طريقة في القول مخصوصة لا تتلاءم مع الاستخدام العادي، إنّ كلّ عدول عن المعيار في مستوى نظام الكلام إنما هو يعكس عدولاً حاصلاً في ميدانٍ آخر من الميادين»[2]، ولذلك نستطيع القول بأنّه يعرّف الأسلوب بأنّه انزياح، يقول أصحاب المعجم الموسوعي لعلوم اللغة: «لم يتخلّ سبيتزر عن اعتبار الأسلوب انزياحاً، كما هو واضحٌ من طريقته في التحليل، والتي ظلّت كما هي من بداية مساره إلى نهايته، وهي دائمًا البحث عن وقائع لغوية تكون بارزةً، إمّا بسبب تردّدها المرتفع جدًّا، وإمّا بالعكس بسبب ندرتها، أو بسبب بروزها كذلك ...إلخ »[3].

---

1 عبد الله صولة، الأسلوبية الذاتية أو النشوئية، مجلة فصول، ص 85–86.

2 Pierre Guiraud, La stylistique, p 69,

والترجمة العربية: بييرغيرو، الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ص81.

3 Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p 183.

ويلخّص لنا الأستاذ صلاح فضل منهجية الدراسة في الأسلوبية النفسية عند سبيتزر بقوله: «يمثّل منهج سبيتزر أهم اتّجاهات التحليل الأسلوبي الذي يعتمد التذوّق الشخصي، لكنّه يحرص على أن يعكس المثيرات التي تصل من النص إلى القارئ، ويحاول أن يحدّد نظام التحليل على هذا الأساس لهذا يطلق عليه اسم "منهج الدائرة الفيلولوجية"، ويتمّ تطبيقه على مراحل متعدّدة؛ فالقارئ مضطرّ لأن يطالع النص ويتأمّله حتى يستلفت نظره شيءٌ في لغته، هذا الشيء يعدّ خاصّية يتمّ التوصّل إليها بالحدس، إذ يهدينا إلى أهمّيتها الأسلوبية في النص، ثم يتمّ اختبارها مرة أخرى بشكل منتظم قراءة جديدة تدعمها شواهد أسلوبية أخرى»[1].

ونستطيع أن نلخّص أهمّ مميّزات أسلوبية سبيتزر في النقاط التالية:

- تعتبر الأسلوب في الأثر نوعًا من الانزياح، لافتاً للنظر بخروجه عن المعايير، وتكراره أحياناً.
- لا يكتفي سبيتزر بملاحظة الظواهر اللغوية التي قام عليها الانزياح، وهو ما يسمّيه بـ"مرحلة البحث عن كيف وقعت التغييرات في النصّ؟"، بل يتجاوزها إلى مرحلة الإجابة عن السؤال التالي هو: " لماذا حصلت تلك التغييرات؟".
- تتجلّى وظيفة النص الجمالية والتي يبحث عنها المحلّل الأسلوبيّ مجرّد معبرٍ للبحث في الوظيفة المعرفية المتعلّقة بموضوع النص بما في ذلك الطرف المؤلّف له.
- تجمع أسلوبية سبيتزر بين مجالين هما: اللسانيات، من خلال التركيز على الظواهر اللغوية المختلفة التي تتميّز فيه االانزياحات، وتاريخ الأدب، باعتباره مجالاً للمعرفة.
- تعتمد أسلوبية سبيتزر على قدرة المحلّل الأسلوبيّ وثقافته واطّلاعه أكثر من كونها تفرض منهجًا صارمًا للتحليل.

1 صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص59.

وقد وجّهت الكثير من الانتقادات إلى سبيتزر ومنهجيته، لعلّ منها ما نقله "ستاروبنسكي" وهو من أنصاره عن بعض الناقدين: «إنّه يحصر نفسه في عملية ذات قطبين (الجزء – الكل)، دون أن يأخذ في الحسبان المستويات الرابطة بينهما، والمكمّلة لهما، وعيب عليه أيضاً نزوعه إلى التعميم انطلاقاً من جزئية بسيطة، دون اعتبار لسائر المكوّنات، ولمختلف العوامل المتجمّعة»[1].

1 عبد الله صولة، الأسلوبية الذاتية أو النشوئية، ص 89.

المحاضرة السادسة:

الأسلوبية التوزيعية

1 - مفهوم التوزيع:

يتعلّق مفهوم التوزيع "DISTRIBUTION" بالتحليل الأسلوبي، وأصلُ استعماله كان موجوداً في البلاغة الغربية باعتباره موازياً لمصطلح الترتيب (DISPOSITION) "ويتمثّل في تنظيم الخطاب، أيْ معرفةُ في أيّ موضعٍ يجب أن نقول ما يجب علينا أن نقوله، وهو أيضًا ترتيب كلّ ما يدخلُ في الخطاب"[1]، ونستطيعُ أن نقول مبدئياً بأنّ التوزيع عمليةٌ يقوم بها المؤلّف من جهة توزيعه للوحدات في الخطاب الذي يؤلّفه، يقول أصحاب معجم "مفردات الأسلوبية" في تعريفهم للتوزيع: «هو عمليّةٌ أساسيةٌ في الدراسة الأسلوبية، لأنّه يحدّد الشرط الأساسيّ لتشكيل النصّ، وهو يشملُ كلاًّ من ترتيب الوحدات في الجملة (موضع الفعل وموضع الفاعل ...إلخ)، كما يشمل جميع أفعال الترتيب النسبيّ: التوازي، والتقطيع، والإضافة، والإقفال ...إلخ، إذن هو عاملٌ أساسيٌّ في توصيف وإنتاج النصّ»[2].

إذن فالتوزيع مرتبطٌ بتوزيع الوحدات داخل الخطاب، ولذلك تناوله الأسلوبيون من هذا الجانب أثناء تعريفهم للأسلوب وربطوه بمفهومَيْن: الاختيار من جهة، والتركيب من جهة أخرى، يقول "كاتي ويلز" في "معجم الأسلوبيات" أثناء تعريفه للأسلوب: «من الواضح أنّ كلّ مؤلِّفٍ يعتمد على المخزون العام للغة في حقبةٍ مّا، ما يجعل الأساليب مميَّزةً هو اختيار الوحدات، وتوزيعها، ونمذجتها، تعريف الأسلوب بلغة الاختيار هو أمرٌ شائعٌ وقد كان موجودًا منذ النهضة: انتقاءُ السمات تحدّد جزئياً بواسطة حاجات الجنس (Genre) والشكل (Forme) والمحور (Theme) والمخاطب (Adressee) ...»[3]، ويقول "سعد مصلوح" في تحديد مهمّة المحلّل الأسلوبيّ: «التشكيل الأسلوبي عملٌ يقومُ به المنشئ، أمّا التحليل الأسلوبي فنشاطٌ تحليليٌّ يقوم به الباحثُ، وهدف الأوّل إنتاجُ النصّ، أمّا هدف الثاني فهو الكشف عن الهويّة الأسلوبية للنصّ، ومادّة الأوّل هي المتغيّرات الأسلوبية، أمّا مادّة الثاني فالتصوّرات الإجرائية المنهجية، وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشيوع، فلابدّ أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشفُ عن أجدر المتغيّرات الأسلوبية بأن تكون خصائص أسلوبية مائزة للنص؛ أي تلك التي يمكن أن توصف بأنّها اختيارات للمنشئ وعن درجات شيوع هذه الاختيارات

1 Georges Molinié, Dictionnaire de rhétorique , p119.

2 Jean Mazaleyrat et Georges Molinié, Vocabulaire de la stylistique, p 112.

3 كاتي ويلز، معجم الأسلوبيات، ترجمة: خالد الأشهب، ص635.

وأنماط توزيعها»[1]، إذن فالغاية من التحليل الأسلوبي هو الكشف عن آليات اختيار الوحدات وتوزيعها في أيّ مستوى من المستويات اللغوية ليتمّ بذلك الكشفُ عن السمات الأسلوبية التي يتولّد عنها التركيب اللغويُّ، وهذا يقودنا إلى البحث عن مفهومي الاختيار والتركيب.

2- **مفهوم الاختيار:**

ربط أغلب الأسلوبيين الاختيار بتعريفهم للأسلوب، فنجد مثلاً "عبد السلام المسدّي" يعرّف الأسلوب بأنّه: «اختيارٌ واعٍ يسلّطه المؤلّف على ما توفّره اللغة من سعةٍ وطاقاتٍ»[2]، ويعرّف "سعد مصلوح" الأسلوب بأنّه: «يمكن تعريفه بأنّه اختيارٌ **Choice** أو انتقاء **Selection** يقوم به المنشئ وتفضيله لسمات لغوية بغرض التعبير عن موقف معيّن، ويدلّ هذا الاختيار أو الانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة، ومجموعة الاختيارات الخاصّة بمنشئ معيّن هي التي تشكّل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين»[3]، ويقول "صلاح فضل" معلّقاً على تعريف "أوهمان" للأسلوب بأنّه"محصّلة مجموعةٍ من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل": «فالأسلوب يولدُ نتيجة لانتقاء المؤلّف من بين إمكانات اللغة الاختيارية التي تقوم بينها علاقة التبادل ممّا يجعل من الميسور ملاحظة الفوارق الأسلوبية في نصوص تنتمي لنفس اللغة عندما تؤدّي جميعها المحتوى الإعلامي ذاته بأشكال مختلفةٍ»[4].

والواضح من هذه التعريفات المختلفة أنّ هناك مجموعة من الخصائص التي يتميّز بها مفهوم الاختيار، إذا أردنا أن نربطه بالتوزيع من جهة، وبالتركيب من جهة أخرى، ويمكن أن نلخّص هذه الخصائص في:

أولاً– وجود قصديّة لاختيارٍ يقوم به صاحب الخطاب، وينبني على هذا أنّ لكلّ مؤلّفٍ أو كاتبٍ أو شاعرٍ أسلوبه الخاصّ به الذي يتميّز به عن غيره من المؤلّفين أو الكتّاب أو الشعراء، والأمرُ ذاته بالنسبة للمحلّل الأسلوبيّ إذا أراد أن يقوم باكتشاف عملية الاختيار فهو يفسّرها بقصدية المؤلّف.

1 سعد مصلوح، الدراسة الإحصائية للأسلوب، بحثٌ في المفهوم والإجراء والوظيفة، عالم الفكر، ص119.

2 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص74-75.

3 سعد مصلوح، الأسلوب، ص37-38.

4 صلاح فضل، علم الأسلوب، ص116.

ثانياً- يقتضي الاختيار وجود مستويات متنوّعة من الاحتمالات هي المستويات التي تكوّن اللغة المستعملة من صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية، فلكلّ مستوىً مجموعةٌ من الوحدات يقوم المؤلّف باختيار بعضها للتعبير عن مجموعة من الأفكار ثمّ توزيعها وتركيبها لتكوّن النصّ الأدبي.

ثالثاً- الاختيار في حدّ ذاته هو المعبّر عن الأسلوب سواءٌ أخذناه باعتباره أسلوب مؤلّفٍ بعينه، أو أسلوب جنس من الأجناس الأدبية، أو أسلوب عصر من العصور.

وقد أشار "صلاح فضل" إلى أربعة أنماط من الاختيار: استبدالية، ونحوية، وأسلوبية، وغير أسلوبية، ثمّ صاغ منها الأنواع التالية:

1- اختيار قصد التوصّل: إذ على أساس بواعث محدّدة يظفر المتكلّم بتحقيق قصده سواءٌ كان توصيلاً أو فرضاً أو إقناعاً أو مجرّد إعلام، ويمكن أن نجد في النصوص الأدبية نية توصيل المقاصد الجمالية بالإضافة لغيرها.

2- اختيار موضوع الكلام؛ فالمتكلّم يختار الموضوعات أو الوقائع التي يريد أن يتناولها، ممّا يحصر إلى حدٍّ كبير نطاق إمكاناته الاختيارية.

3- اختيار "الكود" أو الشفرة اللغوية؛ فالمتحدّث يختار لغة أو لهجة، إن كان يعرف أكثر من لغة، وهذا الاختيار لا يخلو من أهمّية بالنسبة للنصوص الأدبية.

4- الاختيار النحوي؛ فالمتحدّث يختار أبنية لغوية تخضع لقواعد نحوية إجبارية في صياغتها؛ مثل جمل النفي والاستفهام والشرط وغير ذلك من الصيغ.

5- تظلّ هناك بعد ذلك مجموعة من إمكانات التعبير الاختيارية المتعادلة دلاليا بشكل أو بآخر، يستطيع المتحدث أن يمارس فيها اختياراته الأسلوبية[1].

1 ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب، ص116-117.

3- مفهوم التركيب:

مفهوم التركيب ذو علاقة بمفهوم العلاقات التركيبية (Relations syntagmatiques) الذي أتى به "فرديناند دي سوسير" لتفسير مفهوم النظام اللغوي، وقد أشار الأسلوبيون إلى هذا المفهوم من جانبيْن: الجانب الأول يُقْصَدُ به المستوى التركيبي بالنسبة إلى علم التراكيب(Syntaxe) وموضوعه دراسة التراكيب بين الكلمات المكوّنة للجمل والعبارات، وأمّا الجانب الثاني فيقصدُ به التركيب بين الوحدات التي تشكّل النص أو الخطاب الأدبي بغضّ النظر عن أيّ مستوى من المستويات، وهذا الجانب أكثر ارتباطاً بمفهوم الاختيار، فيتولّد من المفهومين نظام العلاقات؛ إذ التركيب يعبّر عن العلاقات التركيبية، ويعبّر الاختيار عن العلاقات الاستبدالية (Relations paradigmatiques)، ويمكننا إدراك ذلك إذا لاحظنا كيف تتركّب "الكلمات في الخطاب من مستويين: حضوري وغيابيّ، فهي تتوزّع سياقياً على امتدادٍ خطّيّ، ويكون لتجاورها تأثيرٌ دلاليٌّ وصوتيٌّ وتركيبيٌّ، وهو ما يدخلها في علاقات ركنية، وهي أيضاً تتوزّع غيابياً في شكلٍ تداعيات للكلمات المنتمية لنفس الجدول الدلالي، فتدخل إذن في علاقة جدلية أو استبدالية، فيصبح الأسلوب بذلك شبكة تقاطع العلاقات الركنية بالعلاقات الجدولية ومجموع علائق بعضها ببعض"[1].

بينما إذا أخذنا مفهوم التركيب باعتباره مستوًى للتحليل فإنّ المحلّل الأسلوبيّ يقوم "بدراسة تركيب ونظام هذه الوحدات وكيفية استخدامها في متواليات أفقية، ولما كانت اللغات تختلف عن بعضها البعض، فإنّ كلّ لغةٍ تتميّز بوحدات وفصائل مختلفةٍ عن وحدات وفصائل اللغات الأخرى، هذه الوحدات تعرف على أسسٍ ومعايير تختلف عن الأسس والمعايير التي تُستخدم في تعريف الوحدات والفصائل الصوتية، ففي اللغة العربية مثلاً هناك أجزاء الكلام، من اسم وفعل وحرف؛ ثمّ شبه الجملة التي تتكوّن من الجار والمجرور أو الظرف بنوعيه الزمان والمكان؛ ثمّ الجملة بنوعيها الاسمية والفعلية..."[2].

---

1 نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج1ص168.

2 علي عزّت، الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ص19.

المحاضرة السابعة:

الظواهر الأسلوبية

1 - مفهوم السمة الأسلوبية:

يعدّ مفهوم السمة الأسلوبية أحد المفاهيم التي تصف الظاهرة التي تهتمّ الأسلوبية باستخراجها والبحث عنها، وقد يُعبَّر عن السمة أحياناً بمصطلحات مشابهة لها تعبّر عن الظاهرة نجدها كثيراً في الدراسات المعاصرة مثل مفاهيم تأخذ صيغة الجمع كالملامح الأسلوبية أو البنى الأسلوبية أو العناصر الأسلوبية أو القيم الأسلوبية وقد يؤخذ المفهوم بصيغة المفرد كالحدث الأسلوبي، وكلّ هذه المصطلحات يستعمل للدلالة على ما تعنيه السمة الأسلوبية.

وتعني السمة في اللغة العلامة وأصلها ما وُسِمَ به الحيوان من ضروب الصور، وقد أُخِذَ هذا المعنى اللغوي للدلالة على العلامة الواضحة البيّنة الدالّة على ظاهرة الأسلوب، ومن أقرب المفاهيم المعبّرة عن مفهوم السمة مفهوم الحدث الأسلوبي، والحدث الأسلوبي إمّا أن يكون حدثاً نوعياً أي كيفياً وإمّا أن يكون حدثاً كمّيّاً، يقول "جان ميشال آدام" في توضيح المفهوم: «إنّ ما يميّز الأسلوب في نظري إنّما هو تكرار مجموعةٍ من الخصائص اللغوية الصغرى، أمّا الحدث الأسلوبي فإنّه حدث نسيجيٌّ جزئيٌّ يكون إمّا متوقّعاً أو مباغتاً طارئاً على أسلوب الأثر أو الأديب أو الجنس أو المدرسة الأدبية، فإذا كان ذلك النسيج منتظراً كان الحدث الأسلوبي تكرّراً، وإن لم يكن منتظراً كان الحدث الأسلوبي تبايناً أي اختلافاً بالقياس إلى ما استقرّ من خصائص لغوية صغرى في النصّ أو لدى أديبٍ مّا أو مدرسةٍ مّا أو جنس أدبيّ مّا، إنّ الحدث الأسلوبي يدرك على أنّه ثمرة توقّع لظاهرة لغوية مّا في النص (فيحدث في النص تكرار أو إطناب) أو ثمرة قطيعةٍ في جزئيةٍ مّا مع هذا التوقّع (فيحدث انقطاع ومباينة في النص) أو هو هذا وذاك معاً»[1].

واعتماداً على هذا النصّ تظهر لدينا السمة الأسلوبية من جهتين اثنتين: فهي إمّا سمةٌ ظاهرةٌ بخروجها عن المعيار وبالتالي فهي تعبّر عن ظاهرة الانزياح، وإمّا أن تكون سمةً متكرّرة بحيث تلفت انتباه المحلّل الأسلوبي بتكرارها فتعبّر عن ظاهرة التكرار، ويمكن كما عبّر صاحب النصّ أن تجمع السمة بين الكمّ والكيف معاً.

1 J. M. Adam, Style et fait de style, in: Qu'est ce que le style? (ouvrage collectif) P.U.F, Paris , 1994, p19.

2- مفهوم الانزياح:

الانزياح ترجمةٌ عربية لمصطلح "L'écart"، وهو عبارةٌ عن مفهوم اختاره بعض علماء الأسلوبية لبيان خاصّية ظاهرة الأسلوب، ويعدّ أول استخدام للمصطلح ما أتى به "ليو سبيتزر"، غير أنّ الأسلوبيين لم يستقرّ استعمالهم على مصطلح واحدٍ للدلالة على الظاهرة، فالمسدّي يحصي اثنيْ عشر لفظاً دالاًّ عليها يختلف باختلاف صاحب المصطلح ومقترحه وهي: الانزياح، والتجاوز، والانحراف، والاختلال، والإطاحة، والمخالفة، والشناعة، والانتهاك، وخرق السنن، واللحن، والعصيان، والتحريف، ويمكن أن نضيف إليها مصطلح: العدول، وليس هذا التعدّد ناتجاً عن مشكلات الترجمة بقدرِ ما هو تعدّد في المصطلحات المستعملة من قبل المنظّرين أنفسهم.

ويمكننا من خلال هذه المصطلحات أن نفهم الظاهرة بأنّها عبارةٌ عن خروج عن الاستعمال العادي للغة يتميّز به النصّ الأدبي، فأيّ أديب أو كاتبٍ حين نودّ دراسةَ أسلوبه لابدّ أن نجد له خروجاً عن الاستعمال العادي للغة يتميّز به، وقد يكون ذلك الخروج في ظاهرةٍ من الظواهر وقد يكون عبارةً عن نصٍّ كاملٍ، وعلى هذا رأى "سبيتزر" أن الأسلوبية تحلّل "استخدام العناصر التي تمدّنا بها اللغة، وإنّ ما يمكّن من كشف ذلك الاستخدام هو الانحراف الأسلوبي الفردي، وما ينتج من انزياح عن الاستعمال العادي"[1].

وقد حاول عددٌ من علماء الأسلوب تعريف الظاهرة، ويمكننا الرجوع أولاً إلى مقترح "جاكبسون" لوظائف اللغة وفق المخطّط التواصلي في تصوّره:

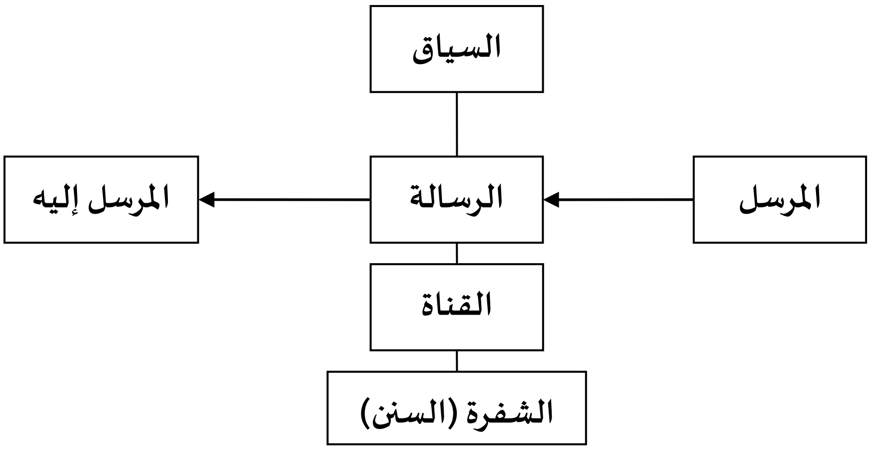

1 نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مج1، ص 180.

وأسند جاكبسون لكلّ عنصر من العناصر وظيفته التي تميّزه عن غيره، وهذه الوظائف هي:

1- الوظيفة التعبيرية وتسمّى الانفعالية (Fonction Expressive ou émotive) وهي الخاصّة بالمرسِل أي الوظيفة التي تعبّر عن عواطف المرسل ومواقفه إزاء الموضوع الذي يعبّر عنه وتتجلّى في طريقة النطق مثلاً أو في أدوات لغوية تفيد الانفعال كالتأوّه أو التعجّب وغيرها.

2- الوظيفة الإفهامية (Fonction Conative) وهي وظيفة خاصّة بالمرسل إليه وتتشكّل أساساً في صيغ الدعاء أو النداء أو الأمر.

3- الوظيفة المرجعيّة (Fonction référentielle) وهي المختصّة بالسياق باعتبار أنّ اللغة تحيلنا على أشياء وموجودات نتحدّث عنها فترمز إليها.

4- الوظيفة الإفهامية أو الاتصالية (Fonction phatique) وهي الخاصّة بالقناة وتكمن في الحرص على إبقاء التواصل بين طرفي الجهاز أثناء التخاطب، وفي مراقبة عملية الإبلاغ والتأكّد من نجاحها، مثل ألفاظ التأكيد أو التكرار أو الإطناب.

5- وظيفة ما وراء اللغة أو اللغة الشارحة (Fonction métalinguistique) وهي التي ترجع إلى السنن أو الرمز وفيها يتأكّد أحد طرفي العملية التواصلية من أنّه يستعمل مع الطرف الآخر نفس النمط اللغوي مثل أن تتخلّل الحوار عبارات: "ماذا تعني؟، أو: هل تفهم كلامي؟ أو: أليس كذلك".

6- الوظيفة الشعرية (Fonction Poétique) وهي الخاصة بالرسالة في حدّ ذاتها.

ويرى جاكبسون أنّ كلّ استعمال لغوي تجتمع فيه هذه الوظائف غير أنّه في بعض الأحيان تهيمن وظيفةٌ على الوظائف الأخرى، وفي النصّ الأدبي تهيمن الوظيفة الشعرية، وقد اقترح جاكبسون تسمية ظاهرة الانزياح في هذا الإطار بخيبة الانتظار.

بينما اقترح "ريفاتير" تسمية هذه الوظيفة بالوظيفة الأسلوبية، ويرى ريفاتير أنّ الأسلوب هو انزياحٌ عن النمط التعبيري المتواضع عليه من القواعد اللغوية أي المعيار، والمعيار هو ما اتّفق عليه من استعمال للغة في عرف الناس، ويظهر الانزياح أو هيمنة الوظيفة الأسلوبية عبر خيبة الانتظار لدى المتلقّي أي ما أسماه ريفاتير بالمفاجأة، وكلّما كانت المفاجأة غير منتظرة كلّما كان وقعها في المتلقّي

أكبر، فإذا تكرّرت فقدت شحنتها التأثيرية في المتلقّي، ويمكننا الاستعانة بالمثال التالي: "كذّبت القوم وقتلت الجماعة" لا يعدّ من الناحية الأسلوبية انزياحاً، بينما قوله تعالى: ﴿فَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة، 87] يعدّ عدولاً وانزياحاً عن النمط التركيبي الأصلي بتقديم المفعول به أوّلاً، وحذف الضمير العائد عليه ثانياً.

وعلى هذا يعمد الأسلوبيون إلى تقسيم الانزياح إلى أشكال تتفرّع حسب مستويات التحليل اللساني، كما يمكن أن نجد لديهم تصنيفاً للانزياح إلى انزياحٍ استبدالي، وانزياح تركيبي، ويمكننا الإشارة إلى بعض الظواهر التي درستها البلاغة العربية والتي تحتوي انزياحاً أو عدولاً، وفي ظلّ هذه النظرة إلى التراث والاستعانة به اقترح مصطفى السعدني ثلاثة محاور لأشكال الانزياح أو العدول هي:

1- محور التبديل أو تغيير المواقع بإعادة الترتيب وجعل منه التقديم والتأخير وتغيير وجه من وجوه الإعراب وتأنيث المذكّر وتذكير المؤنّث، والتعريف والتنكير، والكناية والاستعارة والتشبيه.

2- محور الحذف ويعني إسقاط عنصر من عناصر البناء (كلمة أو جملة).

3- محور الزيادة في عناصر البناء.

بينما رأى عبد الحكيم راضي أنّ ظواهر الانزياح تنقسم إلى قسمين أساسيين هما: الدلالة والتركيب، الدلالة بما فيها من مجاز وكناية وغيرهما من مباحث الدلالة، والتركيب بما يتضمّن من إيجاز وإطناب وتقديم وتأخير وأضرب الخبر وغيرها.

نماذج تحليلية لظاهرة الانزياح:

المستوى اللغوي	الانزياح
المستوى الصوتي	**جارتي مدّت من الشّرفة حبلا من نغم نغمٍ قاس، رتيبِ الضرب، منزوفِ القرار نغمٍ كالنّار نغمٍ يقلَع من قلبي السكينه نغمٍ يورق في روحي أدغالاً حزينه بيننا يا جارتي بحر عميق**

	بيننا بحر من العجز رهيب وعميق وأنا لست بقرصان ولم أركبْ سفينه
المستوى الصرفي	– ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾
المستوى التركيبي	– يا واقــفاً والركـبُ منطلـقٌ أَوَ ما ترى الأحـداث والعبَرا أو ما ترى في العـصر عولمـةً جلبت إليك بنفعها الضــررا ولديك مفــتاح الصــعود بها إن لم تــكن ممّـن بها انبـــهرا عُد يا أخي فالبحر ذو صلفٍ كم مـركــبٍ في موجـه انغمرا كن واضحاً فالشمس صافيةٌ بيــضاء يجـلو نورها البــصرا
المستوى الدلالي	– ﴿ربِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ – فوالله ما أدري أأحلام نائمٍ ألّمت بنا أم كان في الركب يوشع – أتى أيلول ... أين دمشقُ؟ أين أبي وعيناهُ؟ وأين حرير نظرته؟ وأين عبير قهوته؟ سقى الرحمن مثواهُ

3- مفهوم التكرار:

كنّا قد أشرنا في محاضرة سابقةٍ إلى أنّ مفهوم الأسلوب يمكن أن يفهم باعتباره اختياراً ينقسم إلى نوعين، اختيار خاصّ نادراً ما يحصل ويكون خروجاً عن المتآلف عليه والمشترك في النصوص أو لدى الأدباء (يشير إلى ظاهرة الانزياح أو العدول)، واختيار شائع مشترك بين مجموعةٍ من النصوص أو الأدباء أو الأجناس (يشير إلى خاصّية التكرار)، وعلى هذا نحاول في هذه المحاضرة التعرّف على ظاهرة التكرار.

يعدّ مصطلح التكرار (Répétition) مصطلحاً جديدًا من ناحية تناوله في اللسانيات عموماً، بالرغم من كونه اصطلاحاً قديماً في البلاغتين العربية والغربية، ويمكننا الإشارة إلى ذلك عبر تعريف

البلاغيين الغربيين للتكرار ضمن الصور البلاغية بقولهم: «الإعادة أو التكرار أو الترديد تكرار الكلمات أو صياغة الجملة مرّتين أو أكثر، في الشعر أو في النثر، وفي جملة واحدة أو في جمل متعدّدة، للتعبير عن عاطفة جيّاشة أو لمجرّد التحبير والتحسين»، أمّا في البلاغة العربية فقد اشتهر المصطلح عند النقّاد أوّلاً، وربطوه بظاهرة الإطناب، وسمّوه "الإطناب بالتكرير أو التكرار"، ومن ذلك قول ابن رشيق في كتابه "العمدة": «وللتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلّ، فإذا تكرّر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه، ولا يجب للشاعر أن يكرّر اسمًا إلّا على جهة التشويق والاستعذاب، إذا كان في تغزّل أو نسيب».

ويمكننا الانطلاق في تعريف التكرار باعتباره مفهوماً في التحليل الأسلوبي، من كون الأسلوب عمليّة اختيارٍ في اللغة يقوم بها الكاتب أو الشاعر في المستويات اللغوية المختلفة، ويكون هذا الاختيار تكراراً إذا كان ذا جانبٍ كمّيٍّ، بقصد التفريق بين الانزياح والتكرار، غير أنّ الأسلوبيين لا يحصرون التكرار في الألفاظ باعتباره مفرداتٍ أو جملاً فقط، بل يمكن أن يكون التكرار في صوتٍ أو إيقاعٍ معيّنٍ أو تفعيلةٍ معيّنةٍ أو كلمةٍ أو جملةٍ وهكذا، ولعلّ أهمّ مفهوم يوازي مفهوم التكرار هو ما طرحه "جاكبسون" بمصطلح "التكافؤ Equivalence" وهو عبارةٌ عن خاصّية تتميّز بها اللغة الشعرية، وتكون عبارة عن نماذج من التكرار المتكافئة في مستويات الصوت والتركيب والمعجم والمعنى، أمّا محمّد الهادي الطرابلسي فقد عبّر عن عملية التكرار في دراسته التطبيقية المعروفة "خصائص الأسلوب في الشوقيات" بقوله: «عمليّة التكرار هي أكثر من عملية جمع، هي عملية ضربٍ فإن لم تكن كذلك، فهي وليدةُ ضرورةٍ لغويةٍ أو مدلوليةٍ أو توازنٍ صوتيٍّ أو هي تجري لملء البيت والبلوغ به إلى منتهاه»[1]. ومن بين اقتراحات الأسلوبيين لتوضيح مفهوم التكرار ما أتى به "أولمان" إذ ميّز في إطار المستوى التركيبي بين نوعين من التكرار هما:

(1)التكرار البسيط ومنه تكرار الكلمة في جملة واحدة أو في عدّة جمل متوالية،

1 محمّد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص62.

(2)الأنماط المركّبة للتكرار ومنه تكرار عبارة أو جملة بذاتها أو إعادة صياغتها مرّة أخرى عن طريق التغيير في العلاقات التركيبية بين عناصر الجملة.

نماذج تحليلية لظاهرة التكرار:

- المستوى الصرفيّ:

وإنَّ صخراً لمولانَا وسيّدنا	وإنّ صخراً إذا نشتُو لنحّارُ
وإنّ صخراً لتأتَمُّ الهداةُ بِهِ	كَأنّه عَلَمٌ فِي رأْسِـــــــهِ نارُ

- المستوى التركيبي:

هجم التتار

ورموا مدينتنا العريقة بالدمار

والأفق مختنق الغبار

وهناك مركبة محطمة تدور على الطريق

والخيل تنظر في انكسار

الأنف يهمل في انكسار

العين تدمع في انكسار

والأذن يلسعها الغبار

المحاضرة الثامنة:

تحليل الخطاب:

ضبط مفهومي الخطاب والنصّ

صار معروفًا في التخصّصات المعاصرة ما يُصطلح على تسميته بتحليل الخطاب (L'analyse du discours, Discourse analysis)، والنظر إلى هذا المصطلح عبر الْمُنتَجَات المعرفية الأكاديمية والاستعمالات التي غَلُبَتْ عليه سنجد فيه اختلافاً كثيراً، وهو اختلاف معرفيٌّ يتراوح بين المنهج والتخصّص، فهناك من يجعل تحليل الخطاب منهجاً للتحليل، يتمّ من خلاله تحليل النصوص والخطابات وفق نظريات متعدّدة ومختلفة، وهناك من يجعل تحليل الخطاب تخصّصاً قائمًا بذاته، يتمّ في إطاره تحليل النصوص والخطابات عبر مفاهيم محدّدةٍ ومضبوطةٍ، وللتعرّف أكثر على وجهات النظر المختلفة إلى تحليل الخطاب، ينبغي لنا في هذا الفصل الاطلاع على هذه التعريفات المتعدّدة، ولا يمكننا ذلك إلّا بالانطلاق من الظاهرة التي يتركّز حولها تحليل الخطاب، وهي ظاهرة الخطاب، لذا سنحاول الإجابة عن بعضِ أسئلةٍ منها:

- هل الخطاب وحدةٌ لسانيةٌ؟

- هل يمكن للخطاب أن يخضع لقواعد التحليل اللساني؟

- ما هي تداخلات مفهوم الخطاب بظواهر ومفاهيم أخرى كالجملة، والملفوظ، والنصّ؟

1 - مفهوم الخطاب:

صار مصطلح الخطاب يستعمل بكثرةٍ في الدراسات العربية غير أنّ مدلوله في أغلب تلك الدراسات قد يختلف عن المقصود به في الدراسات الغربية، وعلى هذا ارتأينا أن ننظر في الاستعمال العربي لمفهوم الخطاب أولاً ثم ننظر في المقصود من تحليل الخطاب ثانياً.

أمّا أصل الكلمة في العربية فهي تدلّ على الكلام المقصود الموجّه وهذا ما نجده في معاجم اللغة إذ يقول ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": «(خَطَبَ) الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ. وَفِي النِّكَاحِ الطَّلَبُ أَنْ يُزَوَّجَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ**﴾ [سورة البقرة: 235] . وَالْخُطْبَةُ: الْكَلَامُ الْمَخْطُوبُ بِهِ. وَيُقَالُ اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِمْ. وَالْخَطْبُ: الْأَمْرُ يَقَعُ ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا

يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَةِ»[1]، ويقول ابن منظور في "اللسان": «والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً وهما يتخاطبان»[2]، فأصل التوجيه موجودٌ في الاستعمال الفصيح للكلمة، وعلى هذا عرّفه الكفويّ في "الكليات" بقوله: «وهو الكلام الذي يُقصدُ به الإفهام»[3]، وعرّفه سيف الدين الآمدي (ت631هـ) في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام": «الخطاب هو اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيّئٌ لفهمه»[4]، وهذا التعريف الاصطلاحي وإن كان في أصله إنّما تمّت صياغته من أجل التقسيم المعروف للأحكام الشرعية إلا أنّه كان أشهر تعريفٍ للخطاب في عُرف الأصوليين بعد الآمدي، وليس ببعيدٍ أن يكون البلاغيون قد أخذوا المفهوم بهذا التعريف أيضاً، غير أن هذا الضبط الاصطلاحي لمفهوم الخطاب مختلفٌ بعضَ الاختلاف عن الاستعمال في الدراسات العربية الأكاديمية، وتبعاً لذلك نجد اختلافاً في تحديد المقصود بتحليل الخطاب.

يقودنا تتبّع التعريفات التي أعطاها بعض اللسانيّين للخطاب إلى الإجابة عن الأسئلة السابقة، كما سيكشف لنا عن التطوّر الذي حصل في إدراك الظاهرة وضبطها إبستمولوجيًّا، وتكشف لنا هذه التعريفات أيضًا عن وجهات النظر المختلفة لتحليل الخطاب، وقد تجمّع لدينا من متابعة أهمّ تعريفات الخطاب ثلاثة تصوّرات نعتقد أنّها أدّت إلى صياغة تلك التعريفات، وهي:

1-1- التصوّر التركيبي:

وهو التصوّر الذي ينطلق من وجهة نظرٍ تركيبية، ويُنْظَرُ إلى الخطاب من خلالها على اعتبار المكوّنات التركيبية، وتبعاً لذلك تتمّ مقابلته بمفهوم الجملة، فإذا كانت الجملة قد استحوذتْ على اهتمام اللسانيّين بعد الدراسات النحوية القديمة، فإنّه صار من الْمُسَلَّم به لدى بعض اللسانيين أنّ كلّ ما يفوق الجملة هو خطاب، ويتمّ أيضًا مقابلة هذا المفهوم بمفهوم النص، بل يتجاوز الأمرُ المقابلةَ إلى المطابقة بين النص والخطاب عند بعض الدارسين، ومن بين التعاريف التي تنطلق من هذا

1 أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج2 ص198.

2 أبو الفضل جمال الدين محمّد ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، مادة "خطب"، ج1 ص280.

3 أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص419.

4 الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1 ص136.

التصوّر ما جاء في "قاموس اللسانيات" لمجموعةٍ من الباحثين: «الخطابُ وحدةٌ تساوي أو تفوق الجملة، وهو يتكوّن من سلسلة تُشكّل رسالة لها بدايةٌ ونهايةٌ»[1]، أو قول بعض الباحثين بأنه «وحدة لسانية ذات بُعْدٍ يَفُوقُ الجملة (فوق جملي)»[2]، أو بتعريف "زيليغ هاريس" «كُلٌّ نَوْعِيٌّ متماسكٌ في متتالية من الأشكال اللّسانية المرتّبة الْمُهَيَّئَة في جُمَلٍ متتابِعَة»[3].

1 - 2- التصوّر الدلالي:

ويقوم هذا التصوّر على اعتبار دلالة الخطاب، فدلالة الخطاب ليست كدلالة الجملة أو النص، وإن كان بعض اللّسانيين يرون أن الخطاب مساوٍ للنصّ من ناحية الدلالة إلا أنّهم يشترطون إضافة إلى شموله للجملة أن يكون متماسكاً، فمثلاً يذهب "غريماس" إلى أنّ الخطاب هو «وحدةٌ دَالَّةٌ والتي يجدر أن تُحَلَّلَ دلالياً»[4]. وهذا أيضاً ما ذهب إليه "بيير زيما" في تعريفه للخطاب بأنه« وحدة فوق جملية، تولد من لغة جماعية، وتعتبر بنيتها الدلالية "كبنية عميقة" جزءاً من شيفرة، ويمكن تمثيل مسارها التركيبي النحوي بواسطة نموذج تشخيصي (سردي)[عاملي]»[5].

1 - 3- التصوّر التداولي:

وهو التصوّر الأكثر شيوعاً للخطاب، كما أنّه الأكثر ارتباطاً بتحليل الخطاب، وهذا التصوّر لا ينظر إلى الخطاب باعتباره تتابعاً جملياً أو كلاًّ دلالياً متماسكاً فقط، وإنّما ينظر إلى الخطاب باعتباره سيرورةً تواصلية دلالية، لا تنفك عن المقام التواصلي الذي تمَّ إنتَاجُهَا فيه، وتتعدّد التعريفات بهذا التصور تعدُّداً يختلف حسب نقطة التركيز التي صِيغَ بِهَا كلُّ تعريف، غير أنّ الجامع بينها وَضْع مفهوم الخطاب في قلب العملية التواصلية التي تفترضُ مُنْتِجاً ومتلقّياً ومقاماً تواصلياً معيَّناً، وقد حاول "دومينيك مانغينو"

1 J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p 156.
2 C. Baylon, Sociolinguistique, Société, Langue et discours, p 235.
3 Ibid, p 235, et: Sarfati, Eléments d'analyse du discours, p 12.
4 Sarfati , Eléments d'analyse du discours, p 12.
5 بيير زيما، نحو سوسيولوجية للنص الأدبي، مجلة العرب والفكر العالمي، 5/ 1989، ص93، عن: عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص108.

جمع أهم الخصائص التي تُبَيِّن المفهوم بهذا التصّور أحسن تبيين، وتلك الخصائص هي[1]:

- **الخطاب يفترض تركيباً أشمل من الجملة:** وهذا لا يعني في نظر "مانغينو" أنّ كلّ خطاب إنّما هو تتابع لكلماتٍ يكون ضرورةً في حجمٍ أكبر من الجملة، بل هو استعمالٌ لِبُنىً من مستوى آخر غير تلك التي نجدها في مستوى الجملة، وعلى هذا يمكن أن نعتبر "الْمَثَل" خطاباً لأنّه يشكّل وحدةً مكتملةً رغم أنّه في بعض الأحيان ليس إلّا جملة واحدة، وعلى هذا تختلف قواعد التنظيم في مستوى الخطاب عن تلك التي نجدها في مستوى الجملة.

- **الخطاب مُوَجَّهٌ:** وهذا يعني أنّ الخطاب ليس موجّها فقط، حيث يتوجّه به متكلّم ذو قصد معيّن نحو مخاطب أو متلقّ معيّن، بل يعني كذلك أنّه يتضمّن بعض العبارات التي تدلّ على هذا التوجيه، والتي لا تخلو منها التحاورات اليومية، كما لا تخلو بعض الخطابات من بعض العبارات الدالة على الخروج من القصد الأساسي أو الرجوع إليه.

- **الخطاب شكل من أشكال الفعل:** تحت تأثير نظرية الأفعال الكلامية يتمّ النظر إلى الملفوظات على أنّها أفعال، وتشكّل هذه الأفعال الجزئية أفعالاً كلّيةً هي خطابات يُنظَرُ إليها وفق أجناس الخطاب، أي باعتبارها صورةً من صور النشاط الاجتماعي.

- **الخطاب تفاعليّ:** ويظهر الشكل التفاعلي للخطاب خصوصاً فيما يسمّى بالتحاورات، والتي يتوجّه فيها كلُّ متحاور إلى الآخر بالكلام، ومع أنّ كثيراً من الخطابات لا تظهر فيها هذه الخاصّية التي تقتضي وجود متحاورين إلّا أنّه في ظلّ اعتبار هذا الشكل (أي التحاور) الأصلَ في أشكال التفاعل الأخرى، يتم النظر إلى أنّ الأنواع الأخرى من الخطابات تفاعلية أيضاً، إذ تقتضي دائماً وجود متلقِّين، واقعيّين أو مفترضين، يتمّ التوجه بالكلام إليهم أو يتمّ صياغة الخطاب بالنظر إليهم.

- **الخطاب مسوقٌ:** لا يفضّل مانغينو هنا الحديث عن أنّ الخطاب يدخل ضمن سياق، إذ يمكن النظر إلى السياق بهذا الاعتبار على أنّه ليس إلّا إطاراً، ولذا فهو يفضل القول بأنّه لا يمكن تصوّر

1 P. Charaudeau& D. Maingueneau , Dictionnaire d’analyse du discours, p 185-190.

خطاب دون سياقٍ معيّن، بل لا يمكننا إعطاءُ معنىً لملفوظٍ ما خارج السياق، في حين أنّ الخطاب يمكن أن يُسهِمَ في تعريف سياقه أو في تغييره أثناء التلفظ.

- **الخطاب مستعمل**: لا يمكن تصوّر الخطاب إلّا باعتباره متعلّقا بذاتٍ تستعمله، وتحيل عليها الضمائر الموجودة فيه، وتكون مرجعاً للإحالات الزمانية والمكانية، وتشير إلى الموقف الذي تتخذه مما يقوله الخطاب ومن المخَاطب، والنظر في أشكال الذاتية التي يفترضها الخطاب تعتبر من أهم المحاور في تحليل الخطاب.

- **الخطاب محكومٌ بمعايير**: مثل أيّ سلوك اجتماعيّ فإنّ الخطاب محكومٌ بمعايير شديدة العمومية، كما أنّه محكومٌ بمعايير نوعية خاصة، مثل تلك التي نجدها في إشكالية قوانين الخطاب، وعلى هذا فإنّ كلّ فعل تلفّظي يعطي التبرير لتقديمه على الوجه الذي تمّ تقديمه به من خلال الأعراف الاجتماعية، ويتمّ النظر إليها في مستوى الخطاب وفق الأجناس الخطابية التي ينتمي إليها الخطاب، والتي تعدّ نوعاً من إضفاء الشرعية عليه.

- **الخطاب مأخوذٌ ضمن تداخل الخطابات**: وهذا يعني أنّ الخطاب لا يأخذ معنىً إلّا بالنظر إليه داخل عالمٍ من الخطابات يُحدَّد وفقه، ولتأويل أدنى ملفوظ لابدّ من النظر في علاقته بالملفوظات الأخرى التي يمكن أن يرتبط بها، وهكذا فإنّ لكلّ جنسٍ خطابيٍّ طريقته الخاصة في ربط العلاقة بين الخطابات المنتمية إليه، ومجرّد كون الخطاب منتمياً إلى جنسٍ معين يقتضي ربطه بغيره من الخطابات المندرجة ضمن الجنس نفسه.

وحين ننظر في هذا التصور التداولي للخطاب باعتباره التصوّر الأكثر شيوعاً، نلاحظ أنّ هذه الخصائص التي تحدّد مفهوماً بهذا القدر من الأهمية، تُظهِرُ إلى حدٍّ كبير نوعاً من المرونة المعرفية التي ينتفي فيها الجزم بالمفهوم، وليس هذا إلّا نتيجةً لِمَا عليه حالُ "تحليل الخطاب" نفسه، فالقدر الكبير من التوجّهات المعرفية والكمّ الهائل من البحوث والكتب والمقالات التي يعرفها تحليل الخطاب تجعل ضبط المفهوم بشكلٍ دقيقٍ أمراً من الصعب إدراكه، ولعلّ أهم الملاحظات التي نسجّلها هي أنّ "مانغينو" لا يخفي في هذه الخصائص التي قدّمها تأثّره بأحد تيّارات تحليل الخطاب وهو التيار

الفرنسي، والذي يعطي أهمّية أساسية للجانب الاجتماعي من الخطاب، كما سجّلنا عدم اعتباره الانسجام (La cohérence) خاصّية من خصائص الخطاب، وهو المسلّمة التي تحظى باهتمام كبير لدى محلّلي الخطاب، ولم تخلُ جهود "مانغينو" نفسه من الاهتمام بها.

إنّ اعتبارنا للخطاب وحدةً لسانية يجعلنا نضعه في تقابلاته بما هو موضوع للبحث في تخصص "تحليل الخطاب" مع مصطلحات أخرى تمثل وحدات أيضاً للبحث في اللسانيات عبر تخصصات فرعية، وإذا كنّا نرتضي تعريف "مانغينو" للخطاب عبر الخصائص المبَيَّنّة أعلاه، فإنّنا سوف نحاول النظر في هذا التعريف لنُقَابله بغيره من وحدات الدرس في اللسانيات، كالجملة والملفوظ والنص والتلفظ والسياق.

فالخطاب بمثل هذا التحديد قد يُمَثِّلُ نصاً أو مجموعة من النصوص من جهة علاقتها مع ظروف إنتاجها الاجتماعية والتاريخية، وهو بالضرورة يتضمّن جِنْساً خطابياً معيناً يتم إنتاج النص وِفْقَهُ أيضاً.

وهذا ما يذهب إليه أيضاً "جان ميشال آدام" من خلال تمييزه بين النص والخطاب وأجناس الخطاب، ويمكننا انطلاقاً من العلاقات التي يأخذها مفهوم الخطاب كما بيّنها الأستاذ "آدام" أن نحدّد علاقاته بالنسبة إلى الوحدات اللسانية الأخرى كالتالي:

- بالنسبة إلى الجملة: يعتبر الخطاب وحدة فوق جملية.
- بالنسبة إلى الملفوظ: يشكل الخطاب وحدة تواصلية مجموعةً بظروف إنتاج معينة، وتشير إلى جنس معين من أجناس الخطاب، بينما النظر إلى الملفوظ من جهة بنائه لغوياً يبقيه نِتاَجاً لعملية التلفظ فقط، ويكون تحليل ظروف إنتاج هذا الملفوظ حديثاً عن الخطاب.
- بالنسبة إلى النص: يعتبر النص خطاباً إذا نظرنا إليه مجموعاً مع سياق إنتاجه.
- بالنسبة إلى التلفظ: يُعَدُّ التلفظ حاملاً نوعياً لسياق الخطاب، وعلى هذا فهو ضروري في اعتبار الملفوظ خطاباً.

2- مفهوم النصّ:

إنّ مفهوم النصّ عند "آدام" لا يأخذ موقعه اصطلاحاً من مصطلحات اللسانيات النصية إلّا من

خلال تقابله مفهومياً مع مصطلحات أخرى، لذلك نلخّص هنا أهمّ النتائج التي توصّل إليها في عمله المتتابع من أجل توضيح مفهوم النصّ[1]:

1- أنّه يفرّق بين النصّ من حيث هو موضوعٌ مجرّدٌ يتعلّق بالقواعد التي تتجاوز الجملة، أي بمدلوله الذي يحيل على اللسانيات التقليدية البنيوية، وبين النصّ أو النصوص (بصيغة الجمع) من حيث هي مواضيع واقعية ومادّية ومتحقّقة، وترتبط ههنا باللسانيات النصية، إذ هي نظرية لإنتاج المعنى في السياق والسياق النصّيّ.

2- لا تظهر التفرقة بين هذين المفهومين للنصّ إلّا بالنظر في اعتبارات أخرى، من أهمّها مفهوم الخطاب الذي يعني النظر إلى النصوص في سياقات إنتاجها، وبالنظر في علاقاتها أثناء تداخل الخطابات، وكذا في ظلّ مفهوم أجناس الخطاب الذي يحيل إليه كلُّ نصٍّ، وهو ما ينمّ عن التنظيم الاجتماعي للخطابات.

3- إنّ كلّ نصٍّ هو ملفوظٌ (Enoncé) مكتملٌ ولكنّه ليس معزولاً، ويظهر بأنّه نتيجةٌ لفعل التلفّظ دائمًا، لذا يعدّه وحدة التفاعل اللغوي بامتياز، وإذا كان الاهتمام بالنصّ قد تمّ على مستويين: أوّلاً من حيث هو ملفوظٌ أو تتابعٌ جمليٌّ يشكّل وحدةً أو كلاًّ مُوَحَّدًا، وثانياً من حيث إنّ النصّ هو إنجازٌ ملفوظيٌّ أو موضوع ضمن سياق تواصليٍّ معيّن (الخطاب)، فقد أدّى هذا إلى الفصل بين الأبحاث التي تهتمّ بالمستوى الأوّل، وبين الأبحاث التي تهتمّ بالمستوى الثاني، لكنّ هذا الفصل قد انمحت حدوده ومعالمه، إذ اهتمّت اللسانيات النصّية (في مشروع آدام نفسه) إضافةً إلى النظم النصّيّ (Texture) والبنية النصّيّة، بقضايا مثل القصدية (في الإنتاج) والمقبولية (في التلقّي والفهم) التي تتعلّق أساساً بالملاءمة السياقية[2].

1 نشر "آدام" كتابه في اللسانيات النصية بثلاث صيغ متتابعة مع تغيير وتنقيح في العنوان كلّ مرّة، وهذه الصيغ هي:
- Eléments de linguistique textuelle, théorie et pratique de l’analyse textuelle, 1990.
- Linguistique textuelle, Des genres de discours aux textes, 1999.
- La linguistique textuelle, Introduction à l’analyse textuelle des discours, 2005.

2 J.M. Adam, la linguistique textuelle, 2005, p29

4- "إنّ الدور المنوط باللسانيات النصية (في ظلّ تحليل الخطاب) هو تنظيرُ ووصفُ ترتيبِ ملفوظاتٍ جزئيةٍ في ظلّ تكوينها لوحدةٍ عالية التعقيد هي النصّ، ومهمّتها هي تجزئة "علاقات الترابط" التي تجعل من نصٍّ مَّا "شبكةً من التحديدات"، وهي بقدرِ اهتمامها بتعريف الوحدات المختلفة ووصفها، تهتمّ كذلك بالعمليات التي تمسّ مختلف مستويات التعقيد وكذا الملفوظات التي تظهر عليها آثار هذه العمليات"[1].

5- إنّ الوحدات النصّية تحتمل نوعيْن من العمليات التنصيصية (Textualisation) أي التي نستطيع من خلالها الحكمَ على مجموع هذه الوحدات بأنّها تشكّل نصًّا، فمن جهةٍ أولى تنفصل هذه الوحدات باستخدام عملية التقطيع (Segmentation) أي فصل السلسلة الكلامية والتي يُنْتَقَلُ فيها من تقطيع الكلمات إلى تقطيع الفقرات إلى تقطيع أجزاء النصوص، ومن جهة ثانيةٍ يُعَادُ وصلُ هذه الوحدات فيما بينها (عبر عمليات الربط Opération de liage)لتشكّل الوحدات الأكثر تعقيدًا (تكوين المحتوى)، وقدّم "آدام" مخطّطاً يوضّح هذين النوعين من العمليات: التقطيع والربط[2].

6- من أهمّ اقتراحات "آدام" التمثيل الخطاطي الذي يكشف عن مكوّنات النصّ، وهي مكوّنات تمثّل محاولةً لاستيعاب مجمل محتوياته، وهي تنقسم إلى قسمين: تتابع جمليّ (Suite de propositions)، ومظهر تداوليّ (Configuration pragmatique)، ويتكوّن القسم الأوّل أي التتابع الجمليّ من مستويين: مستوى البنية التكوينية (Structure compositionnelle) أي المتتاليات (Séquentialité)، ومستوى الترابط (Connexité) أي النظم (Texture)، بينما يتكوّن القسم الثاني من ثلاثة مستويات: التماسك الدلالي (Cohésion sémantique) أي العوالم والتمثيلات الخطابية، ومستوى التلفّظ أو الوسم التلفّظي (Repérage énonciatif)، ومستوى أفعال الخطاب أو الأغراض الإنجازية (Illocutoire)، والتوجّه الحجاجي (Orientation argumentatif)، ويمكن

1 J.M. Adam, la linguistique textuelle, 2005, p 33.
2 Ibid, p 33.

تمثيل هذه المستويات في الخطاطة التالية[1]:

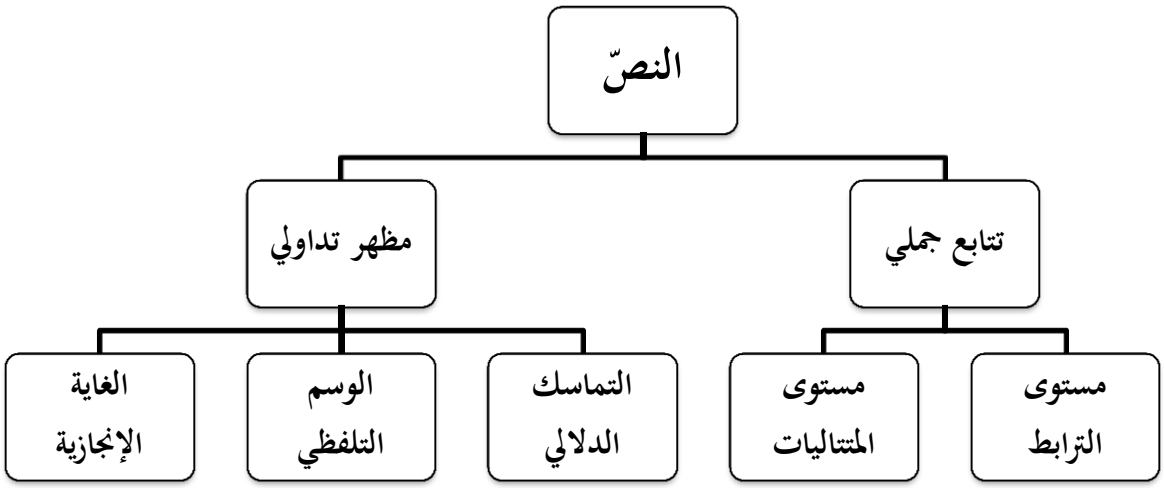

7- ومن المفاهيم المهمّة والمكمّلة في اللسانيات النصية، والتي يعتبرها "آدام" وحدةً تركيبيةً مكوِّنة للنص وقابلة للنمذجة، مفهوم المتتالية (La séquence)، وقد اعتمد "آدام" في صياغة نظريته حول المتتاليات على نظرية "البنى العليا Superstructures"[2]، وتتركّز هذه النظرية، مع تعديلات "آدام" لها، حول وجود مستوى وسيط للبَنْيَنَةِ بين الجملة والنصّ، هو الذي توجد فيه الجمل الكبرى، وهي جملٌ تتكوّن من جملٍ بسيطةٍ (Propositions)، ونستطيع في رأي "آدام" أن نضع الحزمات القالبية (Les empaquetages prototypiques) لهذه الجمل البسيطة، والتي تُكَوِّنُ الجملَ الكبرى، في نماذج تمثّل أنواع المتتاليات[3].

ومن مجمل هذه النتائج التي توصّل إليها "آدام" يمكن أن نتصوّر مفهومًا عامًّا للنصّ في تقابله اصطلاحياً مع مفاهيم أخرى مثل الجملة والملفوظ والمتتالية والخطاب، وهذا التقابل الاصطلاحي للنصّ هو ما يحدّد التصوّر الممكن لمفهومه، والواضحُ كذلك أنّ "آدام" يطرحُ جهازًا نظريًّا تعمل على أساسه اللسانيات النصية في تحليلها للنصّ.

1 J.M. Adam, Les textes: types et prototypes, (1997), p 21. et: J.M. Adam, La linguistique textuelle, (2005), p31, et: (2011), p 45.

2 يجدر بالذكر هنا أنّ المقصود بالبنى العليا ما اقترحه "فان دايك ".

3 P.Charaudeau et D.Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, p 525.

المحاضرة التاسعة:

أصناف الخطاب:

الخطاب اللغوي وغير اللغوي

تدرسُ بعضُ العلوم الإنسانية الخطابَ من وجهات نظرٍ مختلفةٍ، فعلم التاريخ مثلاً يدرس الخطاب باعتباره مصدراً لتوثيق الأحداث التاريخية، وعلم الاجتماع يدرس الخطاب كممثّلٍ للظواهر الاجتماعية في حياة الإنسان مع غيره، وعلم النفس يدرس الخطاب كمظهرٍ للنفس البشرية، واللسانيات تدرس الخطاب مصدراً للغة التي تدرسها، وقد أدّى التطوّر الابستمولوجي لهذا التقاطع بين المعارف الإنسانية إلى نشأة تخصّصات ترتبط فيها الاهتمامات المختلفة، لعلّ من بينها ما أشرنا إليه سابقاً تحت مسمّى تحليل الخطاب، ومن تلك التخصّصات أيضاً علمٌ له باعٌ في العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية هو علم الاتصال أو التواصل (Communication)، وقدْ عُرِفَ المفهوم الأساسيّ لهذا العلم بالنظرية الرياضية للتواصل عند "كلود شانون ووارين ويفر" (1949).

1 - مفهوم التواصل:

صاغ "شانون وويفر" نظريتهما في الأصل عن نموذج الإخبار عبر آلة التلغراف، وحاولا توسيع المجال التطبيقي للنموذج بتجريد نظرية رياضية في سبيل اعتبارها قاعدةً لكلّ تواصل بشريّ، من التلغراف إلى أجهزة التواصل الآلية الأخرى، وصولاً إلى التواصل البشريّ عبر اللغة والخطّ والموسيقى وغيرها، وقد عرّفا التواصل بأنّه: «كلُّ نسقٍ يستندُ إليه فكرٌ معيّنٌ ليؤثّر في غيره»، واستناداً إلى هذا التعريف صاغ "شانون" ثلاثة أنماط أساسية للتواصل هي:

1- نظام متقطّع (Système discret) وفيه تستند الرسالة والإشارة معها إلى متتاليات من الرموز المتقطعة أو المنفصلة، وهو ما يعكسه نموذج التلغراف، حيث تتألف الرسالة من متتاليات من الحروف، والإشارة من متتاليات من النقط والشرطات والفراغات.

2- نظام اتّصالي (Système continu) وتتألف فيه الرسالة والإشارة من وظائف متصلة كما هو الأمر في المذياع والتلفاز.

3- نظام مزدوج أو مختلط (Système mixte) تظهر فيه متغيرات مفصولة وموصولة في آن واحدٍ، كما هو الأمر في بعض أجهزة التواصل العسكرية التي تسعى إلى نقل الرسائل الكلامية عبر تحويلها إلى رموز ثمّ إشارات.

وإذا كان "شانون" قد توقّف عند حدود الإخبار ونقل المعلومات عبر الأجهزة الآلية، فإنّ زميله "ويفر" اعتبر التواصل مفهوما واسعاً يشمل كلّ سلوكٍ بشريٍّ، يقول: «إنّنا سنستعمل مصطلح التواصل بمعنى واسع جدا، يتضمّن كل نسقٍ من التصرّفات التي يستطيع بواسطتها فكرٌ معيّنٌ أن يؤثّر في غيره، فلابدّ من أن يدخل في ذلك إذنْ الكلام المنطوق والمكتوب، ثم الموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والرقص، وكذا كلّ سلوك بشريّ يتّخذ طابع النسق»، ويلخّص المخطّط التالي نموذج "شانون وويفر" في التواصل:

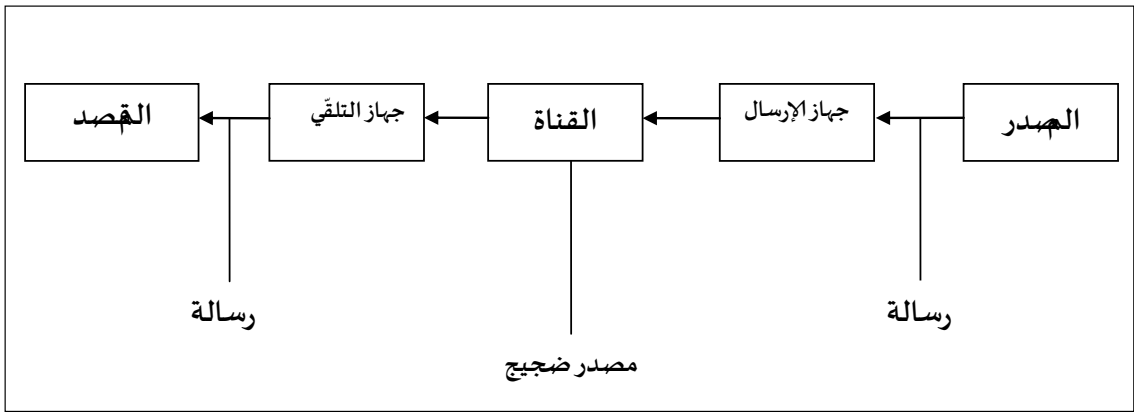

وقد كان من تأثيرات هذه النظرية وما شملته من مفاهيم؛ ما صاغه كلٌّ من جاكبسون (1960)، وموريس (1967)، وبريتون (1970)، وليتش (1976)، وهاليداي (1990)، من مخطّطات للتواصل في إطار اللسانيات.

ويمكننا أن نحدّد التواصل بهذين التعريفين:

- تعريف "سوونسكي Sowinski": "هو نقل المعلومات بين الأفراد نقلاً مقيّدًا بقناة محدّدة" أو "نظم صناعة الأخبار بواسطة المعلومات"[1].

- تعريف "موشلير وأوشلين": "التواصل عملية تهدف إلى إرسال رسالة عبر رمز، من مصدرٍ إلى وجهة، وبالتالي فهو نقل المعلومات من خلال رمز"[2]. ويسمّي "موشلير وأوشلين" هذا النموذج بالشفرة.

1 عن: محمّد العبد، العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال، ص9.

2 Jacques Moeschler& Antoine Auchlin, Introduction à la linguistique contemporaine , p160.

ووفقاً لأنواع العلامات المستخدمة في عملية التواصل فإنّ علماء التواصل يقسّمونه إلى نوعين: التواصل اللفظي (Communication verbale) والتواصل غير اللفظي (Communication non verbale)، وإذا كنّا في محاضرةٍ سابقةٍ قد أشرنا إلى أنّ الخطاب هو النصُّ منظوراً إليه في سياق إنتاجه، فيمكننا أن ننظر إلى الخطاب بنفس النظرة إلى التواصل، إذ الخطاب يمكن أن يحتوي على مكوّنات لغويةٍ تتجلّى في النصّ، ومكوّنات غير لغويةٍ هي التي سنشير إليها ضمن عنصر الخطاب غير اللغوي.

2- الخطاب اللغوي:

يمكننا تعريف الخطاب اللغوي بأنّه الخطاب الذي يستخدم العلامات اللغوية وسيطاً بين المرسل والمرسل إليه، أو بين المتكلّم والمخاطَب، ويشمل هذا النوعُ جميع الأشكال التي يأخذها الخطاب، سواءٌ كان منطوقاً أو مكتوباً، في محادثةٍ يوميّة أو في كتابٍ، عبر قصّة في جريدة أو قصيدة مسموعةٍ، ضمن منشورٍ في شاشات التواصل الاجتماعي أو رواية مطبوعة، وقد أشار بعضُ اللسانيين إلى المكوّنات التي يتمّ تحليلها إذا أردنا دراسة هذا النوع من الخطاب في:

- طبيعة المقام أي الإطار الزماني والمكاني.
- عدد الأشخاص المتفاعلين وطبيعتهم ومكانتهم وأدوارهم وطبيعة العلاقة التي تربطهم ببعضهم.
- الهدف من الخطاب.
- مدى درجة جدّيته وأسلوبه (هل هو جدّيّ أو هزليّ، صراعي أو توافقي).

ويمكن أن نشير في الإطار نفسه إلى اقتراح "ميخائيل باختين" لتحليل الخطاب اللغوي ضمن ما أسماه بأجناس الخطاب، وتصوّرها مرتبطٌ عنده "بدائرة التواصل (Sphère d'échange) أو استعمال اللغة"، يقول باختين: «يتمّ استعمال اللغة على شكل ملفوظات ملموسة فرديّة (شفهية ومكتوبة)، والتي تحمل تمثيلات مختلفة للنشاط الإنساني، ويعكس الملفوظُ الظروفَ والمقاصدَ المعيّنة لكلّ نشاطٍ، ليس فقط عبر مضمونه (الموضوعاتي) وأسلوبه اللغوي، أو بتعبير آخر عبر الاختيار المعجمي والأسلوبي والنحوي للوسائل اللغوية، وعبر بنيته التركيبية أيضًا، هذه الجوانب الثلاثة (المضمون

الموضوعاتي، والأسلوب، والبنية التركيبية) تندمج بتلازمٍ داخل الكلّ الذي هو الملفوظ، وكلّ واحدٍ منها يتحدّد عبر الطبيعة الخاصّة لكلّ مجال محدّد من التواصل، إنّ كلَّ ملفوظٍ مستقلّ هو بالطبع ملفوظٌ فرديّ، لكنّ كلّ دائرة لاستعمال اللغة تُنشئُ أنماط ملفوظاتها المستقرّة نسبياً، وهي ما نسمّيه بأجناس الخطاب»[1]، إذن فلكلّ بيئةٍ اجتماعيةٍ وسيلةٌ للتواصل اللغوي، ولذلك يرى باختين بعدم محدودية الأجناس، إذ تتغيّر الدوائر الاجتماعية وتختلف وتتطوّر، وتبعاً لذلك تختلف الأجناس الخطابية وتتطوّر أيضًا[2]، وبالرغم من أنّ "باختين" قد حاول الابتعاد عن التصنيف المضبوط، إلّا أنّه طرح ثلاثة جوانب رأى من خلالها أنّه يمكن معرفة الجنس الخطابي، وهي: المضمون الموضوعاتي، والأسلوب، والبنية التركيبية، وأوردَ في أثناء ذلك تعليقًا على التصنيف الذي وجد في الدراسات الأدبية والتي كان موضوعها الأساسي هو الأجناس الأدبية، يقول: «لقد تمّ دراسة الأجناس الأدبية منذ القديم وحتّى الآن، إلّا أنّه تمّ دراستها وفق خصائصها الفنية الأدبية، تفريقات مختلفة داخل أجناسية (داخل الأدب)، ولكن ليس باعتبارها أنماطًا خاصّةً من الملفوظات تختلف عن أنماطٍ أخرى»[3]، ثمّ اقترح تفريقاً بين نوعين من الأجناس، أجناس أولى وأجناس ثانية، ورأى في ذلك فائدةً يمكن تتبّعها، فإنّ الأجناس الأولى أكثر بساطةً من الأجناس الثانية والتي تكون أكثر تعقيدًا[4]، ولعلّ الفكرة الأغلب في تصوّر باختين هي المقابلة بين عمومية الأجناس الخطابية وعمومية البنى اللغوية، إلّا أنّ ما يميّز الأجناس الخطابية هي كونها أكثر حرّية[5]، وقد فتح تصوّر "باختين" الباب للباحثين في أجناس الخطاب بأن يطرحوا بعض المقترحات.

ومن ذلك ما حاول "دومنيك مانغينو" أن يطرحه في إطار تصوّر تداوليّ أقرب إلى الضبط في سبيل التعرّف على أجناس الخطاب، ويسمّيها المميّزات الأساسية لجنس الخطاب، وهي[6]:

1 Mikhail Bakhtine, Esthétique de la création verbale, traduit par: AlfredaAucouturier, p265.
2 Ibid, pp265-266.
3 Ibid, p266.
4 Ibid, p267.
5 Ibid, p 285.
6 Dominique Maingueneau, Analyser les textes de communication, pp 51-54.

(1)- **قصدٌ معرَّفٌ**: ويعني أنّ كلّ جنسٍ خطابيّ يسعى إلى تغيير معيّنٍ للمقام الذي يجري فيه، ويمكن أن يُعرف هذا القصد بالإجابة عن سؤالٍ ضمنيّ مفاده: نحن هنا لنقول ماذا أو لنفعل ماذا؟، والتحديد الصحيح لهذا القصد ضروريٌّ جدًّا ليكون للمتلقّي سلوكٌ موافقٌ لجنس الخطاب المختار.

(2)- **وضعيّةٌ مشروعةٌ للمتخاطبين**: وهذا يعدّ إجابةً عن سؤالٍ ضمنيّ آخر مفاده: ما هو الدور الذي يمكن أن يضطلع به صاحب الخطاب والمتلقّي؟، إنّ الكلام وفق جنس خطابيّ معيّن لا يتوجّه من أيٍّ كان إلى أيٍّ كان، وعلى هذا فمتلقّي الخطاب الأدبي ليس هو بالضرورة متلقّي الخطاب السياسي نفسه، وينتج عن هذا الاعتبار لمشروعية الوضعية التي يكون عليها المتخاطبون أن يكون لكلّ منهم واجبات وحقوق ومعارف كذلك، تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ الدخول في تعاقدٍ بينهم.

(3)- **زمان ومكان مشروعان**: إنّ ارتباط جنس الخطاب بزمنٍ معيّنٍ ومكانٍ معيّنٍ ليس ارتباطًا بأمور خارجية، فما يفرضه الزمان والمكان في بيئةٍ معيّنةٍ غير ما يفرضانه في بيئة أخرى، وهذا وجهٌ من وجوه تعدّد الأجناس.

(4)- **دعامةٌ مادّيّة**: والمقصود بها الحامل المادّي للخطاب، والذي من خلاله يتمّ تناقله أو نشره، فيختلف جنس الخطاب من خلاله بين كتابٍ مثلاً وبين مقال في مجلّة أو نصٍّ مسموع وهكذا.

(5)- **تنظيمٌ نصّيٌّ**: وهو ما تدرسه اللسانيات النصية ومن خلاله تربط كلّ جنس خطابيّ معيّنٍ بتنظيمٍ نصّيّ مخصوص به.

وبهذا يظهر لنا أنّ مكوّنات مفهوم جنس الخطاب كما يطرحه "مانغينو" ينقسم إلى قسمين: قسم ثابتٍ مستقرٍّ قوامه قواعد اللغة والمواضعات الاجتماعية والأسلوب المميّز، وقسم متغيّر يتعلّق أساساً بالوضعيّات الفردية للمتخاطبين ومقامات التواصل، وبهدف الجمع والتصنيف اقترح أيضًا توزيعًا شاملاً لأجناس الخطاب كما فعل "باختين"، فقسّم الأجناس إلى نظاميْن بارزيْن هما: نظام الأجناس التحاورية، ونظام الأجناس المؤسَّسة، وتتميّز الأجناس المؤسّسة بأنّها عبارة عن نوعين أيضًا:

نوع متعلّق بالكتّاب والأدباء وأسماها "بالأجناس الإبداعية"، ويمكن أن نجد فيها بعض الإشارات الدالّة على ذلك في عناوينها، كما يمكن أن نجدها في أنماط متعدّدة من الخطاب مثل الخطاب الأدبي والخطاب السياسي والخطاب الفلسفي والخطاب الديني وغيرها، وأمّا النوع الثاني من الأجناس المؤسّسة فهي "الأجناس المعتادة" ويرتبط بالشروط التاريخية والاجتماعية التي دعت إلى نشأته كما أنّه متغيّرٌ حسب بيئته والوسط الذي يحمله، وأمّا النظام الثاني من الأجناس والمتعلّق بالتحاورية فإنّ "تركيبه وموضوعياته هي الأكثر بعدًا عن الاستقرار في الأغلب، ويتغيّر محيطها من دون توقّف"[1].

3- الخطاب غير اللغويّ:

يعني الخطاب غير اللغوي من جانبٍ كلَّ المكوّنات غير اللغوية للخطاب، فالخطاب كما أسلفنا هو النصُّ منظوراً إليه في سياق إنتاجه، وإذا كانت اتّجاهات تحليل الخطاب قد تجاوزت الجملة باعتبارها موضوعاً للسانيات إلى الخطاب، فإنّ من بين ما شدّ انتباه محلّلي الخطاب وجود بعض المكوّنات غير اللغوية مثل بعض الحركات التي يمكن أن تصدر عن المتكلّم أثناء خطابه إن كان خطاب في محادثة يومية، منا حركة اليدين وحركة الرأس وطريقة النظر وطبيعة الضحك وكلّ ما يتعلّق بالجسد من لباس وملامح أخرى، هي التي ركّز عليها محلّلو التواصل وسمّوه كما أسلفنا التواصل غير اللفظي، وإذا كان "دي سوسير" قد أشار إلى وجود علمٍ خاصٍّ بدراسة العلامات سواءٌ كانت لغوية أو غير لغوية، وهو "السيميولوجيا"، فإنّه يمكن دراسةُ هذا النوع من الخطاب غير اللغوي من هذا الجانب، أي باعتباره حاملاً للدلالة من مكوّنات غير لغويةٍ، وقديماً في التراث العربي أشار "أبو عثمان الجاحظ" إلى تصنيفٍ استقرائيٍّ لكلّ أنواع الخطاب، حيث افترضَ أنّ البيان اسمٌ جامعٌ لكلّ أصناف الدلالة، وهذه الأصناف حسب الاستقراء ستكون محدودة محصورة، وعلى هذا وجدناه ينطلق من تصوّر معرفي عامّ هو محدودية الأصناف الدالة (الأشكال التعبيرية)، وهو يعبّر عنها بالألفاظ باعتبارها الصنف الأكثر استعمالاً، في مقابل عدم محدودية المعاني والأفكار التي يراد التعبير عنها(المحتويات)، وهذا إذ يقول: «ثم اعلمْ حفظك الله، أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأنّ المعاني مبسوطة

1 D. Maingueneau, Genres de discours et modes de généricité, pp30-31.

إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصَّلة محدودة، وجميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخط، ثمّ الحال التي تسمّى نِصبة»[1]، إذن ففي مرحلة أولى من التحديد الاصطلاحي لا تمثّل اللغة إلّا جانباً من جوانب الخطاب، باعتباره اسماً جامعاً لكلّ الأنظمة السيميائية (Les systèmes sémiologiques)، التي يقابل فيها الدليل مدلوله، هذا مع أنّ "لكلّ واحدٍ من هذه الخمسة صورةً بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة"[2]، والمقصود ضرورةً بالصورة هو شكل الدليل في هذه الأصناف، وما يظهر في هذا النص ليس التأكيد على التعدّد الذي تأخذه أشكال الخطاب في أداء وظيفة التواصل، بل هو التأكيد على النوع الخامس المسمّى حالاً أو نصبة لديه، وهو نوعٌ يظهر به الخطاب بشكلٍ مخالفٍ للأشكال الأخرى، إذ هو كما يرى الجاحظ صنفٌ دالٌّ بواسطةٍ غيرِ الوسائط المعروفة، إذ يَفترِضُ من المرءِ جهداً معرفياً آخر هو الجهد العقلي الذي يستنبط الدلالات ويولّدها، وبذا لا تكون اللّغة إلّا إحدى الأصناف الدالّة للخطاب.

وفي إطار التحليل المعاصر للخطاب غير اللغوي ما أشار إليه محلّلو التحاورات المعاصرون من تصوّر للخطاب أثناء التحاور باعتباره سلوكاً تدخل في تركيبه المكوّنات اللغوية وغير اللغوية، والخاصّية الأساسية التي يقوم عليها التحاور هي التفاعل أساساً، ويتميّز بأقصى حرية في جميع مستويات إنجازه، ويمكن أن يتميّز ببعض السمات المكوّنة له عن أنواع التفاعل الأخرى، من بينها:

- الحرّية في الموضوع،
- تبادل الأدوار بين المشاركين،
- حرّية المقام الزماني.

1 الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ص76.

2 المصدر نفسه والصفحة.

ومن هذه الزاوية المهتمّة بالتحاور والتفاعل كذلك رأى بعضُ علماء الأنثروبولوجيا اللغوية أنّ المكوّنات غير اللغوية للخطاب يمكن أن تكون: الحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه، والمسافة بين المشاركين، واللمس، والشمّ، والصفير، وعلامة التدخين، ولغة الطبول، وغيرها من المؤثرات الصوتية، وهو ما أسماه "مُحَمَّد العبد" بالسلوك الحركيّ[1].

1 مُحَمَّد العبد، العبارة والإشارة، ص105.

المحاضرة العاشرة:

مقاربات تحليل الخطاب 1

ظهر لنا عبر تتبّع التعريفات التي أعطيت لمفهوم الخطاب، ثمّ استقراره للدلالة على الظاهرة التواصلية التي تجري فيها اللغة مجرى الاستعمال في مقامٍ تواصليٍّ معيّن، أنّه نشأ اصطلاحاً ومفهوماً ثمّ موضوعاً لتخصّص معيّن عبر عدّة مراحل متداخلة أشدّ التداخل، لا يجدي نفعاً فيها متابعتها زمنياً، لأنّ المتابعة الزمنية ربّما أغفلت بعض تفاصيل المسار التطوري، لذا سنتابع في هذه المحاضرة بعضاً من المؤثّرات التي كان لها دورٌ في نشأة التخصّص، ولعلّ أبرز تلك المؤثّرات في متابعة ظاهرة الخطاب ودراستها واستنباط قواعدَ لتحليلِها هي مقاربات مختلفة الأصول الفلسفية والإبستمولوجية، فإذا حاولنا متابعة اهتمام اللسانيين بمفهوم الخطاب حتَّى وصولهم إلى اعتبارها ظاهرةً ينفرد بدراستها تخصّصٌ مستقلّ بذاته، سنصادف نوعيْن من الاهتمام، أثَّرا في ضبط المفهوم وتوجيه الاهتمام إلى الوجهة التي وَصَلَ إليها، وهذان الاهتمامان هما:

1- الدراسات اللسانية التي تجاوزت حدود التحليل الجملي:

يبدو في نظرنا أنّ هذا الاهتمام قد نشأ في تلك الدراسات انطلاقاً من ملاحظة التقابل المبدئي المهمّ بين اللغة والكلام لدى مؤسّس اللسانيات "فرديناند دي سوسير"، ففي إطار ذلك التقابل يكون الخطاب مفهوماً موافِقاً للكلام، كما أنّ الواضح هو أنّ "ديسوسير" كان مُسْتَبْعِداً للخطاب من مجال الدراسة في اللسانيات، غير أنّ التصوّر الذي نعرف أنّه تبنّاه للخطاب هو أنّ اللغة لا تتحقّق إلّا عبر الخطاب[1]. وقد توَاصَلَ طرح هذا المفهوم التقابلي عند تلاميذ دي سوسير مثل "شارل بالي" غير أنّ ما تكفَّل به هؤلاء في "مدرسة جنيف" هو تأسيس لسانيات الكلام، ومن اللسانيين الذين اهتموا أيضاً بمفهوم الخطاب اللساني الفرنسي "غوستاف غيوم Gustave Guillaume" الذي فضَّلَ استعمال مصطلح "الخطاب" بَدَلَ "الكلام" لكنه لم يتجاوز التقابل السوسيري بين اللغة والكلام، أو بين ما هو اجتماعي وما هو فردي[2]، غير أن ذروة الاهتمام في امتدادات اللسانيات البنيوية بمفهوم الخطاب، لم تظهر إلّا في إطار استقلالية توجّه جديد من اللسانيات، كان له الأثر في نشأة اللسانيات التداولية ألا وهو "لسانيات التلفظ Linguistique d'énonciation" وقد جَسَّدَ

1 J.M.Adam, La linguistique textuelle, Introduction à l'analyse textuelle des discours, p 9.
2 George-Elia Sarfati, Elements d’analyse du discours, p10.

هذا الاهتمام " إميل بنفنيست Emile Benveniste".إذ تجاوَزَ "بنفنيست" المفهوم التقليدي للجملة في الدراسات اللسانية البنيوية، وصاَغَ مفهوماً آخر في سيميائية اللغة، هذا المفهوم هو الذي عبَّر عنه من خلال اهتمامه بمصطلح "التلفظ L'énonciation"، فمثلاً نجده يعبّر عن فهمه لحقيقة الظاهرة الخطابية من خلال قوله: «يجب أن نفهم الخطاب في مدلوله الأوسع، كلّ تلفظ يفترض متكلّماً وسامعاً، وعند الأوّل قصد التأثير على الثاني بطريقة مّا»[1]. ولهذا فإنه يطرح بقوةٍ مفهوم "التلفظ" باعتباره الخاصية المميزة لظاهرة الخطاب، كما أنّبنفنيست يفرّق بين ظاهرتين اثنتين: اللغة من جهة، والخطاب من جهة أخرى، وقد أدّى به إلى التفريق بينهما ملاحظة آثار التلفظ في الجملة، لذلك فهو يفرّق بين العلامة من حيث هي وحدة لنظام اللغة يمكن مقابلتها بغيرها من الوحدات، وبين الجملة من جهة أخرى من حيث هي وحدة للخطاب، الظاهرة التواصلية التي تعني اللسان قيد الاستعمال، وهنا لا تخضع الجملة لمبدأ التقابل «إنّ الجملة تخصُّ بحقِّ الخطابَ، ومن هنا يمكن تعريفها: الجملة هي وحدة الخطاب»[2]، ويبدو واضحاً من خلال هذا التصوّر، أنّ الجملة يتمّ وضعها في إطار آخر غير ما تعاهد اللسانيون البنيويون أن يضعوها فيه هو إطار حامل لمقامها التلفّظي، كما أنّبنفنيست أدخل مفهوم الخطاب في تقابل مهمّ آخر، هو تقابله مع مفهوم "الحكي L'histoire"، إذ تظهر خصائص المتكلّم في الخطاب مثل ضمائر المتكلّم والمخاطب، بينما تغيب هذه الخصائص في الحكي، ويكون وصف الأحداث فيه بعيداً عن تدخّل المتكلم[3].

2- الدراسات اللسانية للخطاب الأدبي:

تجسّدت في كثير من آراء الشكلانيين الروس الذين حاولوا في دراساتهم الأدبية، وطرحهم لمفهوم " المحايثةL'immanence"، اكتشاف قوانين الانتظام في النصوص الأدبية، وخاصّة السردية منها، عبر جهود " فلاديمير بروب Vladimir Propp"، وقد أثمرت هذه الدراسات في جهود شخصيْن، استقلّ كلّ واحد منهما بمنهجه في الدراسة، الأوّل هو "رومان جاكبسون"، وقد أشرنا إلى بعض آرائه

1 Emile Benveniste , Problèmes de linguistique générale, T1 p240-241.
2 Ibid, T1 p130.
3 انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص190.

المتنوعة ابتداءً من اللسانيات إلى علوم الاتصال إلى الأدب، فقد أثرى الدراسة اللسانية من خلال تجاوزه للبُعْد البنيوي فيها، ودرسَ أيضاً آثار المتكلّم في ملفوظه مما يعدّ في صلب الدراسة اللسانية للتلفظ، وانخرط في الدراسة البنيوية للخطاب الأدبي، كما أنّه شجّع الدراسة اللسانية على تجاوز حدود الجملة من خلال إثرائه للأدوات اللسانية في الدراسة البنيوية للخطاب الأدبي[1].

أما الثاني فهو "ميخائيل باختين Mikhael Bakhtine" الذي ظلَّتْ أعماله في الدراسات الأدبية أكثر انتشاراً من آرائه اللسانية، وقد تركّز تأثير "باختين" في دراسة الخطاب من خلال محاولته تجاوز حدود الجملة في الدراسة اللسانية، كما كان له أثَرٌ كبير في إثراء مفاهيم التداولية وتحليل الخطاب من خلال بعض المفاهيم التواصلية كتناقل النصوص (Transtextualité) والحوارية (Dialogisme) وتعدد الأصوات (Polyphonie) ومنها أيضاً مفهوم أجناس الخطاب (Genres du discours).

إذن فقد كان نتيجة هذا الاهتمام الذي لَقِيَهُ مفهوم "الخطاب" في الدراسات اللسانية محاولةُ تأسيس تخصّص غايته الأساسية دراسة هذه الظاهرة التواصلية، فكان أن ظهرت بعض النظريات والمناهج التي تحاول التكفّل بهذه الغاية. ويُعْرَفُ "زيليغ هاريس Z. Harris" باعتباره أوَّلَ فاَتِحٍ لهذا الميدان غير أن المنهج الذي اتبعه في دراسته "تحليل الخطاب" ظل نفس المنهج المتبّع في دراسة الجملة؛ وهو المنهج التوزيعي ولم يتجاوز به ذلك التوجُّهَ البنيوي الصوري، وهذا لارتكازه على مبدأي "التوزيع" و "التوازي"، مُسْتَبْعِداً لأيّ أثر للمعنى في التحليل.

أدى الاهتمام الذي لقيته مفاهيم الخطاب والتلفظ والنص إلى نشأة الاتجاه التلفظي الذي تأثَّرَ بدراسات "بنفنيست" و "جاكبسون" وكذا "باختين"، وكان لهذا الاتجاه امتدادٌ واسع عبر ما يُسَمَّى بـ"المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب"، ونودّ قبل أن نتكلّم عن هذه المدرسة أن نشير إلى اتّجاه آخر له امتدادات واسعة عند "الأنجلوساكسون"، يمكننا تسميته ابتداءً بالاتجاه الأنجلوساكسوني، وقد نشأ هذا الاتجاه عبر دراسات عديدة، وتجمّعت فيه تخصصات ومعارف متنوعة، كالإثنولوجيا

1 انظر: د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص102-103.

والأنثروبولوجيا التي تأثّر بها "هاريس"، إضافة إلى التداولية واللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس، وتهتّم أغلب المقاربات في هذا الاتّجاه بالخصائص الداخلية للخطاب مثل: التماسك والانسجام والملاءمة، وإن كانت تركّز أكثر على تحليل التحاورات، وفي هذا الاتجاه نشأت بعض المفاهيم مثل: الكفاءة التداولية، وإستراتيجيات الخطاب، وهي مفاهيم تتعلق أكثر بالنصوص التحاورية، هذا وإن كان "تحليل الخطاب" عند الأنجلوساكسون يندرج فرعاً عن اللسانيات الاجتماعية، وتتداخل فيه المفاهيم التواصلية والنفسية والاجتماعية، ويهتمّ بالمحادثات اليومية والخطاب السياسي، كما أنّه يسعى إلى الوصف ومحايثة موضوعه أكثر من تفسيره[1].

ويمكن أن نشير أيضاً إلى اتّجاه "نحو النصّ" الذي انتشر كثيراً في دراسات الألمان، والإشكالية الرئيسة التي عمل على حلّها هذا التخصص هي محاولة تجاوز حدود الدراسة اللسانية من الجملة إلى النص، واقتراح مجموعة من القواعد الخاصة بالنصوص، ويبدو أنّ كثرة الاقتراحات في هذا الاتجاه من بين ما أدّى إلى تطوره بشكل لافِتٍ للنظر فأُدْخِلَتْ فيه عدة مفاهيم تداولية وتواصلية، وأصبح يُسَمىَّ فيما بعد بـ "لسانيات النص" أو "اللسانيات النصية"، ومن بين الاقتراحات المتعلقة بهذا التخصص أنّ "جان ميشال آدم" يَعُدُّه تخصُّصاً فرعيًّا داخل حقل تحليل الخطاب، وعلى هذا فإنّ مفاهيمه بهذا التصور تتداخل كثيراً مع مفاهيم المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب، وخاصة فيما يتعلّق بالتماسك والانسجام في النصوص والخطابات.

وتتعدّد الأسس المعرفية والمشارب والتوجّهات التي أدّت إلى نشوء المقاربة الفرنسية لتحليل الخطاب، فإضافةً إلى الأثر الكبير الذي خَلَّفَتْه لسانيات التلفظ وامتدادات منهجها لدى اللسانيين الفرنسيين، نشير أيضاً إلى تأثيرات كل من "هاريس" و "هلمسليف L. Hjelmslev" الذي امتدّ تأثيره في المنهج الدلالي لغريماس فيما يسمّى بـ"سيميائيات الخطاب"، ويدخل ضمن شبكة التأثيرات دراسات التحليل الآلي للخطاب التي قام بها "ميشال بيشو M. Pêcheux" (1969)، والتي كانت

1 انظر:

- Christian Baylon: Sociolinguistique. Société, langue et discours, p236.

و– محمّد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 47 – 76. حيث يعرض المؤلف لأفكار كتاب:

G. Brown &Yule: discourseanalysis .

امتداداً للدراسات الإيديولوجية التي قام بها "لويس ألتوسير L. Althusser" (1964، 1965) في الخطاب الماركسي، ونسجّل من جهة أخرى الأثر الذي خلّفته دراسات الخطاب والتلفظ عند الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو Michel Foucault" وجملة المفاهيم التي أدخلها في تحليل الخطاب. هذا دون أن نغفل عن الدراسات اللسانية في التداولية ونحو النصّ والتواصل والتي أدخلت مفاهيمها إلى هذه المدرسة، كما نشير إلى الإسهام الذي قامت به بعض المجلاّت المتخصّصة في مجال اللسانيات، وقد شهدت هذه المدرسة تطوُّراً نظرياً كبيراً بين السنوات الستين والسنوات الثمانين حين أخذت استقرارها المنهجي والنظري في جهود "مانغينو"، وفي نظره تتميز أبحاث المدرسة ودراساتها بالخصائص التالية:

- أنها تدرس مدونات مكتوبة بالأولوية، والتشكيلات الخطابية التي تقدم فائدة تاريخية.
- أنها تهتم بِتَسَجُّل آثار الذات في خطابها.
- أنها تستدعي نظَريات لسانيات التّلفظ وخاصة من خلال أعمال كتّابٍ مثل: "بنفنيست" و "كوليولي Culioli".
- أنها تُنِيطُ دوراً هاماً بمفهوم "تداخل الخطابات".

- عند ميشال فوكو:

ظهرت مقاربة "ميشال فوكو" في تحليل الخطاب من خلال كتابه "حفريات المعرفة L'archéologie du savoir" (1969)، ثمّ أتبعها بمحاضرته المشهورة "نظام الخطاب L'ordre du discours"(1971)، ولعلّ عنوان الكتاب الأوّل أي مصطلح "الحفريات" يوحي بالأرشفة أي "رصد الأرشيف ووصفه"[1]، والمقصود بالأرشيف لديه هو الممارسات الخطابية لمجتمعٍ مّا، وعلى هذا كان الهدف من وجهة نظره هو بناء تاريخٍ خاصٍّ بالأفكار، ومن الناحية الإبستمولوجية تأثّر "فوكو" بالمناهج التاريخية ولكنّه قدّم مصطلحاتٍ جديدةً كليًّا. وما شكّل الموضوع الأساسي في مقاربة "فوكو" هو التساؤل عن العلاقة بين الممارسات الخطابية والممارسات الاجتماعية، وبشكل أعمّ ما تنتجه

1 Dictionnaire d'analyse du discours, p55.

الخطابات في شتّى مناحي الحياة من تصوّرٍ "للحقيقة"، وإذا أردنا التعرّف على مقاربة "فوكو" سنرجع إلى تعريفه للخطاب.

1 - مفهوم الخطاب والتشكيلات الخطابية:

يرتبط مصطلح الخطاب عند "ميشال فوكو" بمصطلحٍ لسانيّ آخر هو مصطلح "الملفوظ L'énoncé"، وهذه أولى الخصائص في تصوّر مفهوم الخطاب لديه، إذ لا يكون الخطاب خطاباً إلّا إذا نُظِرَ إليه باعتباره ملفوظاً مُنتَجًا، أو هو عبارةٌ عن "حدثٍ تلفّظيّ"، ولذا بخصوص تحديد الموضوع في تحليل الخطاب، يصرّح فوكو بأنّ ما يثير اهتمامه ليس "الفكر" ولا "اللغة" بل "أثر الحدث التلفظي"، ولذا يشكّل التعرّف على وحدات الخطاب نقطة البداية، وهذه الوحدات هي التي أسماها بالملفوظات، فالخطاب لديه هو "مجموعةٌ من الملفوظات"، ورأى أنّ مسألة الدراسة والتحليل في كيانٍ اجتماعيٍّ معيَّن يمكن أن تكون: علاقات الملفوظات فيما بينها، أو العلاقات بين مجموعة من الملفوظات، أو العلاقات بين الملفوظات أو مجموعات الملفوظات من جهة والأحداث من جهةٍ أخرى سواءٌ كانت تقنية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية[1].

ثمّ طرح السؤال المنهجي المتمثل في قوله: "تحت أيّ شرط تشكّل مجموعة من الملفوظات وحدة؟"، وتكون هذه الوحدة قادرة على تحديد ما يسمّى خطاباً طبّيًّا، أو خطاباً اقتصادياً، أو خطاباً نحويًا، ولذا افترض "فوكو" أربع إجابات على أساسها يمكن أن نصف مجموعة من الملفوظات بأنّها خطابٌ، وهي[2]:

– أوّلاً: مجال الموضوع نفسه بين هاته الملفوظات.

– ثانياً: نمطٌ معيّنٌ ومعياريٌّ من التلفّظ أو "طريقةٌ تلفّظيّة".

– ثالثاً: معجمٌ محدّدٌ من المفاهيم يتوافق مع نظام المفاهيم المناسبة أو المتداولة في هذا المجال أو ذاك.

– رابعاً: موضوع محوريّ قادرٌ على الدوام بين الإستراتيجيات المختلفة المطبّقة في مجالٍ معيّن.

1 M. Foucault, L'archéologie du savoir, p 41.
2 Ibid, pp 45-50.

والملفوظ لدى "فوكو" ليس المقصود به "القضية كما هي عند المناطقة، أو الجملة كما هي في تصوّر النحاة، ولا الفعل اللغوي كما يتصوّره فلاسفة اللغة التحليليون، ليست الميزة الأساسية للملفوظ كونه بنية، ولكن كونه يتوافق مع وظيفة الوجود التي تختصّ بالعلامات على وجه التحديد، وانطلاقاً من تلك العلامات وبالاعتماد عليها "نستطيع البتّ فيما بعد، عن طريق التحليل أو الحدس، فيما إذا كانت لتلك العلامات معنى أم ليس لها، والوقوف على قاعدة تتاليها وترابطها، ورصد مدلولها ونوع الفعل الذي تنجزه وتصوغه (شفويا أو كتابياً)"[1]، وبناءً على هذا التصوّر للملفوظ رأى "فوكو" أنّ هناك ما أسماه بالوظيفة التلفظية، وأنّ مجموعة من الوحدات اللسانية تكوّن ملفوظاً إذا توفّرت فيها أربعة خصائص رئيسية هي:

- تفرّده "فالملفوظ يوجد خارج إمكانية معاودة الظهور"[2].
- أن يكون ذا علاقة معيّنة بصاحب التلفظ.
- أن يكون ذا علاقة بموضوعٍ مشتركٍ، أي "شبكة عامّة من الصياغات".
- مادّيته أي له وجود مادّيّ، فمثلاً كون الملفوظ مكتوباً أو منطوقاً، والذي وفقًا لمصطلحات "فوكو" "لا تُعطى بالإضافة" بل هي تنتمي إلى "خصائصها الجوهرية".

2- تحليل الخطاب:

يهدف التحليل إلى تحديد ووصف "أشكال التوزيع"، ويستنتج فوكو مصطلحًا موحَّدًا دالًّا على هذه المحاولة المتعلّقة بـ"انفجار الملفوظات" و"تشتّتها" ذاته وهو مصطلح "التشكيلات الخطابية" يقول: " عندما نقف على شكل من أشكال الانتظام (يتّخذ صورة: نظام، ارتباطات، مواقف، وظائف، تحوّلات) بين الموضوعات، وأنواع الملفوظات، والمفاهيم، والاختيارات الموضوعية، سنقول ... إنّنا نتعامل مع **تشكيل خطابيّ**"[3].

1 L'archéologie du savoir, p 115.
2 Ibid, p 118.
3 Ibid, p 53.

تحدّد مجموعة المصطلحات والخصائص التي نظرنا إليها سابقا في تعريف الخطاب والملفوظ والتشكيلة الخطابية بعضَ الفروق الأساسية لمقاربة "فوكو" لتحليل الخطاب، إذ تركّز مقاربته على الاهتمام بثلاث خصائص متعلّقة بالملفوظات أو التشكيلات الخطابية هي:

1- الندرة "LA RARETE"(إذ الملفوظ هو حدث واحد على الرغم من أنّه قابل للتكرار في حالات مختلفة).

2- الخارجية "L'EXTERIORITE" (ما يهم في التحليل هو فهم الملفوظ في مظهره، وليس في أي "داخلية" ذاتية).

3- التراكم "LE CUMUL" (يتشكل إنتاج الملفوظ ونشره على خلفية الصياغات الأخرى التي تذكره).

لكنّ حقيقة الخطاب، التي يتم استيعابها على مستوى الملفوظات المنتجة بالفعل، تُفهم مسبقًا على أنها مصفوفةُ إنتاجٍ، وهذا ما يحدّده "فوكو" من خلال مصطلح "الممارسة الخطابية PRATIQUE DISCURSIVE"، ويقترح تعريفه بأنه "مجموعة من القواعد التاريخية مجهولة المصدر تحدّد شروط ممارسة الوظيفة التلفّظية، في زمان ومكان ضمن فترةٍ معيّنة، وفي مجال اجتماعيّ أو اقتصاديّ أو جغرافيّ أو لغويّ معيّن"[1]، من هذا المنظور، يجب أن تحدّد منهجية الحفريات لنفسها هدفًا لوصف أرشيف المجتمع، أي وصف "كل الأشياء التي قيلت". بالتأكيد لم ينتج فوكو أي تطور محدد للطريقة التي يتم بها التعبير عن الممارسات غير الخطابية بأحداث الخطاب. ومع ذلك، فإنّ تصور مفهوم الممارسة الخطابية يكتمل لوضع تحليل الخطاب في منظور انعكاس على فعالية الوظيفة التلفّظية.

وفي كتابه "نظام الخطاب" يحدّد "فوكو" الخطاب بأنّه شبكةٌ من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي يُنتَجُ فيها الكلامُ كخطابٍ ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه، يقول في كتابه "نظام الخطاب": «أفترضُ أنّ إنتاج الخطاب في كلّ مجتمعٍ، هو في الوقت نفسه إنتاج مراقبٌ، ومنتقى، ومنظّم، ومعادٌ توزيعه، من خلال عددٍ من الإجراءات التي يكون دورها هو الحدّ

1 L'archéologie du savoir, p 154.

من سلطاته ومخاطره، والتحكّم في حدوثه المحتمل، وإخفاء مادّيّته الثقيلة والرهيبة»[1] .ويضرب أمثلةً بالقيود المعروفة في كلّ المجتمعات على ما يمكن أن يقال وما لا يمكن أن يقال، كما ضرب أمثلة على الهيمنة التي يمارسها في حقلٍ معرفيٍّ أو مهنيٍّ أصحاب ذلك الحقل على أهلية المتكلّم وصحة خطابه ومشروعيّته، وما إلى ذلك من ملابسات تشير بوضوحٍ إلى أنّ إنتاج الخطاب وتوزيعه ليس حرًّا أو بريئاً كما قد يبدو في ظاهره، ويلخّص الإجراءات في:

– **المنع**: يقول "فوكو": "أكثر هذه الإجراءات بداهةً وأكثرها تداولاً كذلك هو المنع، إنّنا نعرف جيّدًا أنّه ليس لدينا الحقّ في أن نقول كل شيءٍ وأنّنا لا يمكن أن نتحدّث عن كلّ شيء في كل ظرف، ونعرف أخيراً ألا أحد يمكنه أن يتحدّث عن أيّ شيءٍ كان، هناك الموضوع الذي لا يجوز الحديث عنه وهناك الطقوس الخاصة بكل ظرف، وحقّ الامتياز أو الخصوصية الممنوح للذات المتحدثة: تلك هي لعبة الأنواع الثلاثة من إجراءات المنع التي تتقاطع وتتعاضد أو يعوض بعضها البعض مشكلة سياجا معقدا يتعدّل باستمرار"[2].

– **القسمة والرفض**: فهناك نوع من الخطاب لا يتمّ تداوله مثل غيره من الخطابات، وضرب مثالاً لذلك في الفرق بين العقل والحمق.

– **التقسيم بين الحقيقي والمخطئ**: وهو تقسيم حملته منظومة كاملة من المؤسسات بحيث تفرضه وتقوده.

1 ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمّد سبيلا، ص4.

2 المرجع نفسه، ص4.

المحاضرة الحادية عشرة:

مقاربة تحليل الخطاب

عند "توين فان دايك"

اشتهر اسم "توين فادن دايك T.A. VAN DIJK" بنحو النصّ أو لسانيات النصّ، وكان من أبرز المنظّرين له من خلال مجموعة من الكتب والأبحاث، ثمّ كانت له بعض الدراسات والبحوث أيضاً في الخطاب وتحليل الخطاب، وقد سجّلنا في بعض أبحاثه المنشورة الارتباط الوثيق بين تحليل النصوص في تسمياته المختلفة (نحو النص، ولسانيات النص، والتحليل النصّي) من جهة، وتحليل الخطاب من جهة أخرى، كما نستطيع أن نربط بين مفهومه للنصّ ومفهومه للخطاب، فكتابه المترجم إلى العربية "النصّ والسياق" في عنوانه الفرعي مثلاً دلالةٌ على ذلك الارتباط "استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"[1]، وقد أشرف على مجموعةٍ من الأبحاث طبعت مشتركةً في كتاب واحدٍ بعنوان: "Discourse as Structure and Process, Discourse studies: A Multidisciplinary Introduction"، ومن بين مؤلّفاته التي واصل فيها الدراسات حول تحليل الخطاب كتابه المترجم "الخطاب والسلطة"، وهو توجّه جديدٌ شاع في العلوم الإنسانية والاجتماعية عُرف بالتحليل النقدي للخطاب "CRITICAL DISCOURSE ANALYSIS"، وضمّنه الكثير من الأفكار التي تجاوز فيها لسانيات النص إلى تحليل الخطاب[2].

1 - مفهوم الخطاب عند "فان دايك":

حين نتتبع جهود "فان دايك" نجد أنّها قد ابتدأت من تلك النقطة التي ترى في الخطاب وحدةً متجاوزةً للجملة، وعلى هذا لابدّ من اقتراح مبادئ جديدة لتحليلها، فالمصطلح المقابل الذي نجده لديه في كتابه المعرَّب "النصّ والسياق" هو مصطلح الخطاب، إذ يقول في سياق الكلام عن إحدى المسلّمات التي يقوم عليها هذا الكتاب: «وهناك أسبابٌ أدّت بنا إلى أن نسلّم بأنّ العبارات المنطوقةَ يجب أن تعاد صياغتها تبعاً لوحدةٍ أوسع ما تكون، وأعني بذلك المتن أو النصّ، وهذا الاصطلاح

---

1 نسجّل ههنا شيئاً من الغموض في الترجمة التي تقدّم بها "عبد القادر قنيني"، فالأصل الإنجليزي هو بعنوان:
Explorations in the semantics and pragmatics of discourse

2 يمكن أن نضيف إلى الكتاب المترجم السابق ذكره، كتباً أخرى مكرّسة لتحليل الخطاب أو للبحث في مفهوم الخطاب ومنها:
- T.A. Van Dijk, (edi) Handbook of discourse analysis, Academic press, London, 1985.
- T.A. Van Dijk, (edi) Discourse as Structure and Process, Discourse studies: A Multidisciplinary Introduction, Sage publications, London, 1997.
- T. A. Van Dijk, Studies in the pragmatics of discourse. The Hague: Mouton. (1981).
- T.A. Van Dijk, Discourse and Context, Cambridge university press, 2008.

الأخير إنّما استعمل هنا ليفيدَ الصياغة النظرية المجرّدة المتضمّنة لما يسمّى عادةً بالخطاب»[1]، إلاّ أنّه لم يقلّل من فوائد القواعد النحوية الخاصة بالجملة في استعمالها في الدراسة اللسانية للخطاب بهذا الاعتبار، ولكنّه يقترح أيضاً استعمال مصطلح النحو في مفهومٍ واسعٍ، أي النحوُ مضافاً إليه الدلالة والتداولية معاً، ففي الكتاب المشترك يقدّم "فان دايك" بحثاً بصدد التمهيد للمقالات والأبحاث الأخرى، بعنوان "دراسة الخطاب The study of discourse"، وفيه يجيب عن السؤال الأساسي "ما هو الخطاب؟".

يشير "فان دايك" إلى وجود أكثر من تصوّر للخطاب، ويختلف ذلك التصوّر باختلاف وجهات النظر، فمحلّل الخطاب السياسي ينظر بنظرةٍ تختلف عن وجهة نظر محلّل الخطاب الفلسفي أو محلّل التحاورات اليومية أو محلّل الخطاب الأدبي، ولذا يحاول "فان دايك" التجميع بين وجهات النظر المتعدّدة في تصوّرٍ للخطاب أكثر تنظيراً، يقول: « يحاول محلّلو الخطاب تجاوز مثل تلك التعريفات البديهية للخطاب، يتفقون على أنّ الخطاب هو شكل من أشكال استعمال اللغة، ولكن نظرًا لأنّ هذا التصوّر لا يزال غامضًا وغير مناسب دائمًا، فإنّهم يقدّمون مفهومًا أكثر نظريةً لـ "الخطاب" يكون أكثر تحديدًا وفي نفس الوقت أوسع في تطبيقه. إنّهم يريدون تضمين بعض المكوّنات الأساسية الأخرى في المفهوم، هي "من" يستعمل اللغة و"كيف" و"لماذا" و"متى"»[2]، وانطلاقاً من هذه التساؤلات العامّة يستنتج أهمّ مميّزات الخطاب:

- أوّلاً: الخاصّية الأولى للخطاب **كونه استعمالاً للغة**.

- ثانيا: الخاصّية الثانية هي وظيفيّته أي أنّه لأداء غرضٍ، فالخطاب **حدث تواصليّ**؛ "أي أنّ الناس يستخدمون اللغة لتوصيل الأفكار أو المعتقدات (أو للتعبير عن المشاعر)، وهم يفعلون ذلك كجزء من الأحداث الاجتماعية الأكثر تعقيدًا، على سبيل المثال في مواقف محدّدة مثل لقاء مع

1 توين فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2000، ص19.

2 T.A. Van Dijk, The stady of discourse, p 2.

الأصدقاء، أو في مكالمة هاتفية، أو درس في الفصل، أو في مقابلة عمل، أو أثناء زيارة الطبيب، أو عند كتابة أو قراءة تقرير إخباري"[1].

- ثالثاً: الخاصّية الثالثة هي التفاعل، فالخطاب أيًّا كان هو عبارةٌ عن حدثٍ يشير إلى الفعل والتفاعل، "فالمشاركون **يفعلون شيئًا ما**، أي شيءٌ آخر يتجاوز مجرّد استخدام اللغة أو توصيل الأفكار أو المعتقدات: فهم يتفاعلون، وللتأكيد على هذا الجانب التفاعلي للخطاب، يوصف أحيانًا أيضًا بأنّه شكل من أشكال **التفاعل اللفظي**"[2].

وبناءً على هذه الخصائص الثلاثة تتعدّد التخصّصات التي تدرس الخطاب وتحلّله، و"عادةً ما تكون مهمّة دراسات الخطاب تقديم أوصاف متكاملة لهذه الأبعاد الرئيسية الثلاثة للخطاب: كيف يؤثر استعمال اللغة على المعتقدات والتفاعل؟، أو العكس؛ كيف تؤثر جوانب التفاعل على كيفية كلام الناس؟، أو كيف تتحكم المعتقدات في استعمال اللغة والتفاعل؟ إضافةً إلى ذلك وبجانب تقديم أوصاف منهجية، قد نتوقع أن تقوم دراسات الخطاب بصياغة نظريات تشرح هذه العلاقات بين استعمال اللغة والمعتقدات والتفاعل".

2- مبادئ تحليل الخطاب:

مثل تعدّد البنى والمستويات والأبعاد المختلفة للخطاب، تتعدّد المناهج والتخصّصات في دراسة الخطاب، ولذا يقوم "فان دايك" بالتمييز بين بعض الأنواع أو الأساليب أو أنماط التحليل، ويضرب لذلك المثال في الفرق بين دراسات "النص TEXT" و"المحادثة أو المنطوق TALK"، إذ يميل تحليل النص إلى التعامل في كثير من الأحيان مع البنى (المجردة) للخطاب المكتوب كموضوعٍ ثابت، بينما تركّز دراسة المحادثة بدلاً من ذلك على الجوانب الأكثر ديناميكية للتفاعل التلقائي، وتحليل النصّ أكثر ارتباطًا باللسانيات، بينما دراسة المحادثة من العلوم الاجتماعية. ومع ذلك، على الرغم من الاختلافات الكبيرة بين هذين التخصّصيْن، إلّا أنّهما بنفس النظام والقواعد يقومان بالتحليل التفصيلي لبنى النص والمحادثة

1 T.A. Van Dijk, The stady of discourse, p 2.
2 Ibid, p 2.

واستراتيجياتهما، كلاهما أكثر وصفية وأقلّ شرحًا، ويميلان إلى تجاهل السياقات الأوسع (على سبيل المثال المفاهيم العرفانية أو الاجتماعية).

يرى "فان دايك" أنّه بالطريقة نفسها يمكن التمييز بين دراسات شكلية أكثر تجريداً، "مثل الفرق بين النحو والذكاء الاصطناعي من جهة، ودراسات للنصوص المنتجة بالفعل أو المحادثات في سياقات اجتماعية وتاريخية محددة، أي عن الطرق التي يتعامل بها مستعملو اللغة الفعليون والفاعلون الاجتماعيون (غالبًا بشكل غير كامل) في الكلام، وإيجاد معنى وفعل الأشياء بالكلمات"[1].

هذا التعدّد في زوايا النظر في تحليل الخطاب ساق "فان دايك" إلى التمييز بين مجموعة كبيرة من المقاربات تختلف باختلاف التخصّصات، وهذه التخصّصات التي أثمرت تحليل الخطاب هي:

- الإثنوغرافيا، - البنيوية والسيميائية، - نحو الخطاب، - اللسانيات الاجتماعية والتداولية، - المنهجية الإثنية، - علم النفس المعرفي، - علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التخاطبي، - علوم الاتصال، وتخصّصات أخرى[2].

واستنتج من خلال هذه المقاربات المتعدّدة والتخصّصات المختلفة أهمّ مبادئ تحليل الخطاب وهي:

1- الخطاب هو نصٌّ أو محادثة واقعان بالفعل، فأغلب الدراسات التي تحلّل الخطاب تركّز على هذا البعد الطبيعي الفعلي للخطاب.

2- الخطاب يؤخذ في سياقاته، أي يجب أن يُدْرَسَ كجزءٍ مُكَوِّنٍ لسياقه سواءٌ نُظرَ إليه كلّياً أو جزئياً، اجتماعيا أو ثقافياً.

3- الخطاب هو محادثةٌ في الأصل، فإذا كان من الشائع قديماً دراسة الخطاب المكتوب أدبياً أو إعلاميا، فإنّ يجب التوجّه إلى دراسة الخطاب كمحادثة تفاعلية واقعة.

1 The study of discourse, p 23.
2 Ibid, p 25-27.

4- الخطاب ممارسةٌ اجتماعية لأعضاء المجتمع، فالخطاب سواءٌ كان مكتوباً أو منطوقاً هو جزءٌ من الممارسة الاجتماعية في السياقات الاجتماعية والثقافية.

5- الخطاب بيانٌ للفئات الاجتماعية، فالخطاب يختلف من فئة اجتماعية إلى أخرى، وعمل المحلّل هو معرفة تلك الفئة من الخطاب، وهو أمرٌ تقدّم فيه محلّلو التحاورات.

6- الخطاب يتّسم بخاصّية التعاقب أو التسلسل، ففي إنجازه سواءٌ مكتوباً أو منطوقاً يظهر هذا الجانب التعاقبي والخطّي في إنتاجه أو في تأويله.

7- الخطاب بناءٌ، فأجزاء الخطاب حتّى وإنْ نُظرَ إليها في إطار التسلسل لابدّ أن تُفْهَمَ بأنّها أجزاءٌ من كلٍّ أكبر، ومن هذه الناحية يمكن أن تُفهم الأجزاء تدرّجياً في بناء الخطاب.

8- للخطاب مستويات وأبعادٌ، فمحلّل الخطاب يقوم بتقسيم الخطاب إلى طبقات مختلفة ومستويات وأبعاد، وتمثّل هذه المستويات المختلفة أنواعاً من الظاهرة يتمّ تحليلها بمناهج مختلفة مثل الأصوات والأشكال والمعاني والأفعال.

9- الخطاب معانٍ ووظائف، فبعد تحليل الخطاب لدى مستعملي اللغة أو محلّلي الخطاب يتمّ التساؤل عن تأويل الخطب ثمّ عن وظائفه.

10- الخطاب له علاقة بالقواعد اللغوية، فكما يتمّ تحليله لدى المحلّلين ومستعملي اللغة من أجل الكشف عن المعنى، قد يتمّ تجاوز ذلك إلى التساؤل عن أسباب خرق القواعد أو تغييرها أو تجاهلها.

11- الخطاب إستراتيجيات، فبجانب القواعد اللغوية يستعمل المتكلّمون ومنتجو الخطاب بعض الإستراتيجيات النابعة عن السياق التواصلي، وهي ما يتمّ تحليله في إطار تحليل الخطاب.

12- الخطاب مظهر للعرفان الاجتماعية، فالعمليات الذهنية والتمثيلات ذات دور كبيرٍ في إنتاج الخطاب أو تأويله.

المحاضرة الثانية عشرة:

مقاربة تحليل الخطاب

عند "دومنيك مانغينو"

يعدّ "دومنيك مانغينو" من بين أهمّ روّاد تحليل الخطاب وخصوصاً في المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب، وقد كانت كتبه وتآليفه كثيرةً في هذا الجانب، وسعى فيها إلى توضيح تصوّره في تحليل الخطاب، ومن بين أهمّ تلك الكتب كتابه "الكلمات المفاتيح لتحليل الخطاب Les mots clés d'analyse du discours"، ثمّ إشرافه على "معجم تحليل الخطاب Dictionnaire d'analyse du discours" بالزمالة مع "باتريك شارودو" ومجموعة من الباحثين، وتعكس بعض مساهماته التطبيقية مثل "linguistique pour le texte littéraire" و" Pragmatique pour le discours littéraire"، تأثّره من جانبيْن في تقديم مقاربة لتحليل الخطاب: الجانب الأوّل هو اللسانيات، والجانب الثاني هو التداولية، ولذا كنّا قد قدّمنا في محاضرة التعريف بمصطلح الخطاب ذلك التصوّر الذي اقترحه في تعريف الخطاب ضمن التصوّر التداولي، الذي يتجاوز الجملة من ناحية، ويركّز على البعد الاستعمالي للخطاب، ويمكننا إعادة النظر في اقتراحه لمفهوم الخطاب للتعرّف على مقاربته أكثر.

1 - مفهوم الخطاب عند "مانغينو":

يقترح علينا "مانغينو" تعريفاً للخطاب من خلال الخصائص التي تميّز هذا المفهوم، وذلك انطلاقاً من أبحاث تحليل الخطاب نفسها، تلك الأبحاث التي تتّسم بتداخل الاختصاصات فيها وتتأثّر كثيرا بالتصورات التداولية، وأهمّ خصائص مفهوم الخطاب انطلاقاً من هذا التصور الذي يرى "مانغينو" أنه "عَرَضٌ لِتَغَيُّرٍ في الطريقة التي يتمّ بها إدراك اللغة "[1]، هي ما أسلفنا الإشارة إليه في محاضرة "ضبط مفهومي الخطاب والنصّ".

وحين ننظر في هذا التصور التداولي للخطاب باعتباره التصور الأكثر شيوعاً نلاحظ أن هذه الخصائص التي تحدّد مفهوماً بهذا القدر من الأهمية تُظهِرُ إلى حدٍّ كبير نوعاً من المرونة المعرفية التي ينتفي فيها الجزم بالمفهوم، وليس هذا إلا نتيجة لما عليه حال التخصص نفسه، ولعل أهمّ الملاحظات

1 P.Charaudeau & D.Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, p187.

التي نسجلها هي أنّ "مانغينو" لا يخفي في هذه الخصائص التي قدّمها تأثّره بأحد تيارات تحليل الخطاب وهو التيار الفرنسي، والذي يعطي أهمية أساسية للجانب الاجتماعي من الخطاب.

وفي ظلّ هذا التصوّر يعقد "مانغينو" ضمن تعريفه للخطاب في "معجم تحليل الخطاب" مجموعةً من التقابلات مع غيره من الوحدات اللسانية المستعملة في مجال التحليل ليتمّ تمييزه عنها، ويمكن أن نلخّص تلك التقابلات في النقاط التالية[1]:

- **الخطاب والجملة:** يعتبر الخطاب في ظلّ هذا التقابل وحدةً لسانية مكوَّنَةً من تتابعٍ من الجمل، وفي ظلّ هذا التصور أطلق "ز. هاريس" اسم "تحليل الخطاب" على ذلك الفرع من اللسانيات الذي يهتم بتحليل هذه الوحدة المتجاوزة للجملة.
- **الخطاب واللغة:** ويعتبر الخطاب في ظلّ هذا التقابل بديلاً اصطلاحيا للكلام في الثنائية المعروفة "اللغة والكلام" التي أطلقها "دي سوسير" وتكون بمقتضاها اللغة نظاماً من القيم الافتراضية الموجودة في أذهان المجموعة البشرية الناطقة بها والتي تتقابل مع الكلام أو الخطاب أي الاستعمال الفردي لذلك النظام، وفي ظل هذا التقابل اقترح "غيوم" مثلاً استعمال مصطلح الخطاب بدل استعمال مصطلح الكلام الذي يرجع إلى سوسير.
- **الخطاب والنص:** ويتم تصور الخطاب وفق هذا التقابل على أنه نصٌّ تم إدخاله ضمن سياقٍ معيّن، أي ينظر إلى هذا النص في ظل ظروف إنتاجه وتلقّيه.
- **الخطاب والملفوظ:** ويكون النظر في ظل هذا التقابل من زاويتين متقابلتين: فإما أن يُنْظَرَ إلى الوحدات التي تتجاوز الجملة على أنها ملفوظات أي هي وحدة لسانية متجاوزة للجملة وهي نتيجة لفعل التلفظ، وإما أن ينظر إليها في ظل هذا الفعل التلفّظي أي باعتباره حدثاً تواصليا في ظل ظروف إنتاج محدّدة.

1 P.Charaudeau & D.Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, éditions de Seuils, Paris, 2002, pp 185-186.

يمكننا أن نستخلص من تعريف "مانغينو"، هو رابط الاستعمال، أي إنه مهما كان الاعتبار الذي ننظر إلى الخطاب من خلاله فهو يدور في فلك استعمال اللغة، فالملفوظ أو النص أو الكلام أو التحاور كلها مصطلحات تؤدّي معنى الاستعمال اللغوي، والحديث عن الاستعمال يعني بالضرورة الحديث عن مقتضيات ذلك الاستعمال سواءٌ أكانت تلك المقتضيات تواصلية أو مقامية أو اجتماعية أو نفسية، وهذا المزيج من المقتضيات التي تؤطر مفهوم الخطاب هي التي جعلت أوجه النظر إليه تتعدّد وتعاريفه تختلف.

2- تحليل الخطاب عند "مانغينو":

رأى "مانغينو" في مقال له بعنوان "تحليل الخطاب وحدوده L'analyse du discours et ses frontières" أنّه كما تختلف تعريفات الخطاب تختلف التوجهات في ضبط ما يعنيه مصطلح "تحليل الخطاب" أو موضوع تحليل الخطاب، وما يتكفّل هذا التخصّص بدراسته، وتبعاً لهذه الوضعية التي تكشف التعدّد والتنوّع في تحديد مجال البحث والدراسة في تحليل الخطاب ذهب إلى التمييز بين لسانيات الخطاب وبين تحليل الخطاب، انطلاقاً من أنّ لسانيات الخطاب هي تخصّص نظريّ يضمّ بعض التخصّصات التطبيقية المندرجة فيه، ومن بينها تحليل الخطاب ونظرية الحجاج والتحليل التحاوري والتحليل النقدي للخطاب، وغيرها من التخصصات التي تباشر عملية التحليل استناداً إلى مرجعية نظرية، والتعبير عن هذه المرجعية النظرية بمصطلح "لسانيات الخطاب" هو تعبيرٌ عن مجموعة من المسلّمات النظرية والمنهجية التي تتجاوز فيها تخصصات فرعية معينة- كالمذكورة سابقاً- لسانيات الجملة إلى ما فوق الجملة أو ما بعدها[1]، ويتعلّق الأمر أساساً بإدخال مفاهيم المقام والقصد والتلفظ والاستعمال والفعل والتماسك والانسجام والاستدلال في الدراسة اللسانية، ومن هذه النقطة تظهر الوضعية الحرجة التي ما زال يعيشها تخصص تحليل الخطاب، مما يدلّ على أنه لا يزال يحظى بعدم استقرار معرفي خاصة في اختلاف وجهات نظر منظّريه ومطبّقيه، ولعل السبب في ذلك في نظرنا هو اختلاف مشارب النشأة التي أدت إلى تبلور التخصص معرفياً ومنهجياً، وتعبيراً عن هذه الوضعية

1 D. Maingueneau, L'analyse du discours et ses frontières, pp 64-75.

دافع مانغينو عن فكرة أن ظاهرة الخطاب لا يمكن أن تكون موضوعاً معرفياً إلا إذا دُرِسَت في تخصصات متعدّدة لكل منها فائدة معينة مثل اللسانيات الاجتماعية ونظرية الحجاج وتحليل الخطاب والتحليل التحاوري والتحليل النقدي للخطاب وغيرها[1].

إن هذه الوضعية التي تختلف فيها نقاط التركيز ومواضع الاهتمام بين مجموعة من التخصصات التي تتخذ الخطاب موضوعاً لها هي التي بلورتْ مصطلح لسانيات الخطاب في نظر من يستخدمه، وعلى هذا فتحليل الخطاب في نظر "مانغينو" يتّخذ موضوعاً له ربطَ العلاقة بين النص وبين وسطه الاجتماعي الذي أدى إلى ظهور النص على ما هو عليه، والتفكير في هذه العلاقة ودراستها وتحليلها يمثل جوهر التميّز في تحليل الخطاب عن غيره من التخصصات التي تطرق الموضوع نفسه عند "مانغينو".

2- 1: التداولية وتحليل الخطاب في مقاربة "مانغينو":

يقوم التداخل المفهومي بين التداولية وتحليل الخطاب أساساً في دراسة ظاهرة واحدة هي الخطاب باعتباره تواصلاً إنسانياً، وإن كانت التداولية قد اهتمت في أول أبحاثها بوحدة جزئية هي الملفوظ أو الجملة في سياق التلفظ؛ فإنّ هذه الوحدة لم تكن كافية بحسب بعض الدراسات، وقد صار الاهتمام بالخطاب؛ ومن وجه آخر بالنص؛ غرضاً من أغراض التداولية، فدخلت مفاهيمها في تحليل الخطاب واللسانيات النصية ابتداءً بالملفوظ والتلفظ والسياق والمقام التواصلي، والقصد والفعل الكلامي، وتداخل النصوص والتحادث والإشاريات والمبهمات ومضمرات القول والحجاج، وصار من المهمّ في تحليل الخطاب تحليل المقام التواصلي الذي جرى فيه الخطاب وتحليل الأفعال الكلامية الموجودة فيه وصولاً إلى الأفعال الكلامية الكلّية التي لها دور أساسيٌّ في تحديد جنس الخطاب، كما تُدْرَسُ آليات الإشاريات والمبهمات ومضمرات القول وحضورها في الخطاب إضافة إلى دراسة الملفوظات الحجاجية وتوظيفاتها في السياقات التواصلية، ويعدّ كذلك الاهتمام بالتعاون التأويلي الذي يمارسُهُ المتقبّل للخطاب أحد المباحث التداولية الهامة، وقد انفتح مجال دراسة الأدب باعتباره ظاهرة

1 D. Maingueneau, L'analyse du discours et ses frontières, p 66.

تواصلية أي خطاباً ناتجاً في سياق تواصلي معين بتطبيق منهج التداولية في دراسته وهذا من بين ما تتقاطع فيه التداولية مع تحليل الخطاب[1]، إذ إنّ تحليل الخطاب يستعمل المفاهيم التداولية التي أشرنا إليها في مقاربة جديدة للخطاب الأدبي، وقد جاء هذا الاستعمال في رأي "مانغينو" بعد النتائج الطيّبة التي حقّقتها التداولية بمفاهيمها المتعدّدة في دراسة الخطابات التواصلية الأخرى أو أجناس الخطاب الأخرى، ويَعُدُّ "مانغينو" هذا الانتقال الجديد في دراسة الأدب باعتباره خطاباً تحت تأثير التداولية فتحاً جديداً، لا تصبح فيه اللسانيات وسيلةً فقط كما كانت في الأسلوبية التقليدية والبنيوية، وإنّما تصير وسيلةً منهجيةً لتنظيم الحقول المعرفية واستثمار الظواهر وهذا «تطور مقترن باللسانيات النصية ولسانيات الخطاب مستوحاتيْن من الاتجاهات التداولية ونظريات التلفظ، أَثْرَتاَ بشكل معتبر التفكير في الملفوظات الأدبية»[2]، وقد شمل هذا الإثراء تطورات في دراسة بعض القضايا الأدبية المهمّة مثل أجناس الخطاب، وتعدّد الأصوات الملفوظي، وإشارات التفاعل الشفهي، والسياقات الحجاجية وقوانين الخطاب والإحالات والمجاز...إلخ[3]، وتتلخّص عند "مانغينو" أهمّ المؤثرات التداولية في تحليل الخطاب في النقاط التالية:

1- تجاوز المفهوم التقليدي للخطاب، والذي يركّز على الحجم الشكلي باعتباره سلسلة من الجمل أو مقابلاً للنص، إلى محاولة اعتباره سيرورة تواصلية تدخل في تكوينها أجزاء أخرى مثل: المقام التواصلي والتلفظ، والمشاركون في عملية التلفظ، كما أنّ الخطاب يدخل ضمن شبكة من العلاقات مع خطابات أخرى قد تكون من نفس جنسه كالخطاب الأدبي مثلاً، أو تكون من غير جنسه مثل علاقة الخطاب الأدبي بالخطاب السياسي أو الخطاب الإشهاري.

2- الانتقال من دراسة البنية التركيبية واللسانية للخطاب إلى دراسة كفاءته التداولية، وهي الكفاءة التي تتعلق بصلة الخطاب بالمقام التواصلي الذي أُنْتِجَ فيه مع الاهتمام بآثار المقام والتلفظ في الخطاب، والنظر إليه في ضوء قوانين الخطاب التداولية.

1 G.E. Sarfati: Précis de pragmatique, p 75 – 77.

2 Dominique Maingueneau, Un tournant dans les études littéraires. P21. in: l'analyse du discours dans les études littéraires, direction de Ruth Amossy et D. Maingueneau, Presses universitaire du Mirail, Toulouse, France, 2003.

3 Ibid. p21.

3- النظر إلى الخطاب على أنّه تمثيل (Représentation) يتخذ فيه كلّ واحدٍ من المتخاطبين موقعاً اجتماعياً، ويكون كل تلفظ وبالتالي كل ملفوظ حاملاً نوعياً لهذا الموقع الاجتماعي في السيرورة التواصلية، مع الاهتمام أيضاً بكيفيات انتقال وتداول الخطاب في هذه السيرورة.

4- دراسة الإستراتيجيات الخطابية التي يستعملها المتكلم في خطابه والمتلقي في تلقيه للخطاب.

5- دراسة الدلالات اللزومية للخطاب الناشئة عن بعض القواعد التواصلية التي تجري في استعمال اللغة، مثل متضمّنات القول والافتراض المسبق والأقوال المضمرة.

2-2: مقام الخطاب:

يقدّم "مانغينو" ما يسمّيه مفهوم المشهد التلفّظي (La scène d'énonciation) ضمن مقاربته في تحليل الخطاب، ويعني به المقام الذي يظهر من خلاله النصُّ أو الخطاب، وإذا كان سياق التأليف يتعلّق بما هو خارج فعل التلفّظ، أي بما يحيطُ بهذا الفعل، فإنّ مشهد التلفّظ يتعلّق بما هو داخل هذا الفعل، ويقسّم هذا المقام إلى ثلاثة أنواعٍ فرعيّة هي:

أوّلاً: المشهد الجامع (Scène englobant): ويتعلّق بنمط الخطاب، "فحين ندخل في تواصلٍ مع نصٍّ مَّا فيجب أن نكون قادرين على تحديد ما إذا كان يرجع إلى نمط الخطاب الديني أو الأدبي أو السياسي ... بعبارة أخرى في أيّ مكان سيوضع لِيُأَوَّلَ"[1].

ثانياً: المشهد الأجناسيّ (Scène générique) ويتعلّق بجنس الخطاب أو نوعه، ومعلومٌ أنّه مجموعةٌ من المعايير المتغيّرة عبر الزمان والمكان، والتي تحدّد مجموعة من التوقّعات لدى المتلقّين، وهذه المعايير صارت من المتعارف عليها سواءٌ في الأجناس الأدبية أو في غيرها من الخطابات، لذلك من المفترض أن يكون الكاتب من جهةٍ على علمٍ بها، إذ إنّه لا يكتب إلّا عبرها، كما أنّ المتلقّي من جهةٍ أخرى يتلقّى الخطاب باعتباره جنسًا، وكما أنّ جنس الخطاب متعدّد، فهو من ناحية أخرى يعكس اختياراً يمثّل إطاراً مشهديًا يمكن أن نعدّه مقامًا للتلفّظ.

1 D. Maingueneau, Linguistique pour le texte littéraire, p 11.

ثالثاً: السينوغرافيا (Scènographie) أو الإخراج، وهو الطريقة التي يتشكّل بها مقام التلفّظ داخل التلفّظ نفسه، ويكون التبادل بين الإخراج والتلفّظ تبادلا تفاعلياً، أي إنّ طريقة الإخراج تحدّد مقام التلفّظ، كما أنّ التلفّظ نفسه يحدّد طريقة الإخراج، إذ إنّ كلًّا منهما يعطي الشرعية أو القبول للآخر، فمقام التلفّظ يعطي الشرعية لطريقة الإخراج، وطريقة الإخراج أيضًا تعطي الشرعية لمقام التلفّظ وتحدّده[1].

2-2: قوانين الخطاب:

عرفت قوانين الخطاب كمقترحٍ تداوليٍّ ضمن تحليل الملفوظات أو العبارات، واشتهر من بين الذين اقترحوا هذه القوانين "بول غرايس" و"أوزوالد ديكرو"، ولذا كان اقتراح "مانغينو" تكملة لهذه القوانين، وما اقترحه كان قانون الملاءمة (La pertinence) وقد أثرى البحث في هذا القانون كلٌّ من "سبربر و ويلسون D. Sperber, D. Wilson"رابطيْن إياه بمقترحات علم النفس المعرفي، حتى أصبح عندهما نظرية مكتملة لتفسير الملفوظات، ويبدو أن مبدأ الملاءمة ذو صلة وثيقة بقانون الإفادة، إذ يتعلق القانون أساساً بالمعلومات ذات الإفادة في السياق التواصلي، لذا فالتواصل بالنسبة لصاحبي النظرية يسعى إلى تغيير مقام التلفظ، وهذا يحدث خاصة بفضل الاستدلالات التي يقوم بها المتلفظ المشارك بجعل المعلومات الجديدة التي يحتويها الملفوظ تتفاعل مع المعلومات المكتسبة سابقاً، وكلما غيّرت المعلومات الصادرة عن الملفوظ المقامَ كلما كان الملفوظ ملائما[2]، وهكذا فإنّ المتلفظ المشارك يسعى بدافع هذا المبدأ إلى معالجة المعلومة الأكثر ملاءمة ضمن المعلومات التي بحوزته[3].

1 D. Maingueneau, Linguistique pour le texte littéraire, pp 10-13.

ويمكن للتفصيل الاطلاع على:

- D. Maingueneau, Le contexte de l’œuvre littéraire, pp 121-125.
- D. Maingueneau, les termes clés d’analyse du discours, p 73.

2 D.Maingueneau, Les termes clés de l’analyse du discours, P61.

3 Ibid, P61-62.

المحاضرة الثالثة عشرة:

مقاربة تحليل الخطاب

عند "رولان بارت"

اشتهر اسم "رولان بارت ROLAND BARTHES" كناقدٍ بنيويّ بامتيازٍ، فقد قدّم مجموعةً من المقالات والكتب التي بيّن فيها عن هذا التوجّه البنيويّ في النقد، ولعلّ من المفاهيم التي ارتبطت باسمه هو منهجه البنيوي في تحليل النصوص السردية، في مقاله المشهور "INTRODUCTION A L'ANALYSE STRUCTURALE DES RECITS"، ولذا نرى أنّ مقاربته في تحليل الخطاب ألصق بالخطاب الأدبي، ويمكن أن نضيف إلى التعرّف على منهجه في التحليل البنيوي ما حوتْهُ دراسته المهمّة "قراءة جديدة للبلاغة القديمة" من تصوّرات جديدةٍ في مجال البلاغة الغربية، ويمكن أن نجد فيها ارتباطاً بتحليل الخطاب.

1 - مفهوم النص عند "بارت":

تمثّل سلطة النصّ أولى المسلّمات في مقاربة "بارت"، وبها يظهر الأثر البنيوي في توجّهه، وتظهر تلك السلطة في كونه يطرح تصوّراً جديداً للعلاقة بين الكاتب والقارئ، فالنصّ أيًّا كان نوعه هو في الأصل رسالة من المرسل إلى المرسل إليه، وإذا كانت بعض النماذج النقدية قد اهتمّت بالكاتب وتاريخه أو نفسيته أو مجتمعه، فإنّ المنهج البنيوي كما جاء فيه عمل "بارت" هو التركيز على النصّ من حيث كونه "لذّة"، سواءٌ لذّةً في الكتابة أو لذّةً في القراءة، ومن هنا تأتي سلطة النصّ، إذ هي سلطة تفاعلية عاطفية تسمح للقارئ أن يبيّن عن رغبته في قراءة النص أو انفعاله من قراءته، وليست سلطة مفروضةً، وهذا هو الجديد الذي أتى به "بارت" في نظرته للنص؛ ينتقل في تعامله معه من الموقف السلبي للمتلقّي أو القارئ إلى موقف آخر "يصير فيه النص فعالية كتابية ينضوي تحتها كلّ من الكاتب والقارئ، لا كأدوات لتثبيت المعنى ولكن كبريقٍ خاطفٍ وومضات عابرة في فضاءات الخطاب غير المتناهية"[1].

وفي تعريفه للنص يتّفق "رولان بارت" مع تعريف "جوليا كريستيفا"؛ إذ يقول: «تطوّر تعريف النص لأغراضٍ إبستمولوجية بشكل رئيسيٍّ من قبل جوليا كريستيفا إذ تقول: "نحن نعرّف النص بأنّه جهازٌ عابرٌ للغة، يعيد توزيع نظام اللغة من خلال ربط الكلام التواصلي الذي يهدف إلى نقل المعلومات المباشرة بملفوظاتٍ مختلفةٍ سابقةٍ أو متزامنةٍ"؛ نحن مدينون لجوليا كريستيفا بالمفاهيم النظرية الرئيسية

1 منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص125-126.

الموجودة ضمنيًا في هذا التعريف: إجراءات دلالية، والإنتاجية، والدلالية، والنص الظاهر والنص الأصل، والتناص»[1]، ويمكن انطلاقاً من هذا التعريف أن نجد بعض المسلّمات الإضافية التي على أساسها صاغ "بارت" نظريته في التحليل البنيوي للنص السردي.

2- من الجملة إلى الخطاب:

يقرّر "بارت" في بداية الكشف عن البنية في النصوص السردية بأنّ السرد أو القصّة في حدّ ذاتها هي ميدانٌ يفوق الجملة، لكنّه لم يستعمل مصطلح النص بل استعمل مصطلح الخطاب، يقول: «تقف اللسانيات، كما نعلم، عند حدود الجملة، فهي تعتبر أنّ الجملة هي الوحدة الأخيرة، وأنّ الانشغال بها حقٌّ من حقوقها، فالجملة كما تراها؛ نظامٌ وليست سلسلةً من الكلمات، ولأنّها هي فعلاً كذلك لا يمكن أن تختزل لتكوّن مجموع الكلمات التي تكوّنها، وما دامت هي هكذا، فإنّها تمثّل وحدةً أصليةً، وأمّا الملفوظ فهو على العكس من ذلك، إنّه سلسلة من الجمل التي تكوّنه، ولذا فالخطاب من وجهة نظر لسانية لا يتضمّن شيئاً إلّا ويوجد في الجملة، فالجملة كما يقول مارتيني: "هي الوحدة الأصغر والتي تمثّل الخطاب تمثيلاً تامًّا وكاملاً"، وهذا يعني إذن أنّ اللسانيات لا تستطيع أن تعطي لنفسها موضوعاً يعلو على الجملة، والسبب لأنّها لا ترى فيما وراء الجملة سوى جملٍ أخرى، ...»[2]، ومن وجهة النظر هذه يرى "بارت" أنّه لابدّ من نشأة لسانيات أخرى يكون موضوعها الخطاب تسمّى بلسانيات الخطاب، تهتمّ بالخطاب باعتباره وحدةً تفوق الجملة، يقول مواصلاً حديثه في الأمر: «ومع ذلك، من الواضح أنّ الخطاب نفسه (كمجموعة من الجمل) منظم، وأنّه من خلال هذا التنظيم يظهر كرسالة من لغة أخرى تفوقُ لغة اللسانيين، فللخطاب وحداته وقواعده و"نحوُه": وعلى الرغم من أنّه يتكوّن فقط من جمل، فإنّه يجب أن يكون بشكل طبيعي موضوع لسانيات أخرى تفوق الجملة. لقد كان للسانيات الخطاب منذ زمن طويلٍ اسمٌ مجيدٌ: هو البلاغة؛ ولكنّها كنتيجة للعبة تاريخية كاملة، عبرتْ إلى الآداب الجميلة، والآداب الجميلة انفصلت عن الدراسة اللغوية، كان من الضروري مؤخرًا تناول المشكلة من جديد:

1 Roland Barthes, Théorie du texte, p 3.
2 R. Barthes, Introduction à l’analyse structurale des récits, p 3.

لسانيات الخطاب الجديدة لم يتم تطويره بعد، ولكنّه على الأقل مقترح من قبل اللسانيين أنفسهم»[1]. ونستطيع القول بأنّ "بارت" يطرح نوعاً من المقاربة الجديدة التي تجتاز اللسانيات العامّة وموضوعها أي الجملة، إلى موضوعٍ جديدٍ تهتمّ به هو لسانيات خاصّةٌ بالخطاب، وتشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تحليل الخطاب.

3- الخطاب والبلاغة القديمة:

يمثّل المقال الطويل الذي نشره "بارت" حول البلاغة القديمة "L'ANCIENNE RHETORIQUE" مجموعةً من الدروس التي عرضَ فيها أبرز مفاهيم البلاغة الغربية القديمة، وكان ذلك العرضُ جانباً من إحياء البلاغة الغربية في الأوساط الأكاديمية الفرنسية في نهاية الستينات وبداية السبعينات، وكانت من بين نتائجه بروز نظرياتٍ عن الحجاج "L'ARGUMENTATION"، وما يهمّنا أكثر في عرضِ "بارت" للبلاغة القديمة، هو النظر إليها كإحياءٍ لمقاربةٍ قديمةٍ للخطاب، فالشرح التفصيلي الذي قام به للمفاهيم البلاغية والأمثلة التي وضّح بها هي دليلٌ على ذلك الإحياء الذي سيمهّد لنظريات الحجاج أو البلاغة الجديدة باعتبارها مقاربةً لتحليل الخطاب، والغريب أنّه في بداية التمهيد لهذا المقال وللتعريف به نفى أن تكون هناك بلاغة جديدة، تتجاوز البلاغة القديمة بمفاهيمها ومناهجها، وهو ما لم يحدث في الواقع، يقول "بارت": «العرض المقدّم هنا هو تدوين لحلقةٍ دراسيةٍ أُلقيتْ بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا سنة 1964- 1965، وفي أصل أو أفق هذه الحلقة، كان هناك، وكما هو دائماً، النصّ الحديث، يعني: النص الذي لم يوجد بعد. ومن بين سبل مقاربة هذا النص الجديد معرفة انطلاقاً "ممّاذا" و"ضدّ ماذا" يبحث عن نفسه، وبناء عليه فسبيل مقاربته هي مواجهة السيميوطيقا الجديدة للكتابة والممارسات القديمة للغة الأدبية، التي سمّيتْ لمدّة قرونٍ بالبلاغة. من هنا تأتي فكرة حلقة دراسية حول البلاغة القديمة: هذا القِدَمُ لا يعني أنّه توجد اليوم بلاغة جديدة، فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد: إنّ العالم مليءٌ وبشكلٍ عجيبٍ، بالبلاغة القديمة»[2].

1 R. Barthes, Introduction à l'analyse structurale des récits, p 3.

2 رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، ص11.

وفي آخر المقال، بعد أن قدّم "بارت" شرحاً تفصيلياً وتاريخياً للمفاهيم البلاغية، طرحَ مجموعةً من الأسئلة التي نرى بأنّها ذات علاقة بتحليل الخطاب في حدّ ذاته، كتب قائلاً: « قبل كلّ شيءٍ، الاقتناعُ بأنّ العديد من سمات أدبنا، وتعليمنا، ومؤسساتنا اللغوية (وهل هناك مؤسسة واحدة بدون لغة؟) سيتم توضيحها أو فهمها بشكل مختلف لو عرفنا بعمقٍ (أي إذا لم نرفضه) الشفرة البلاغية التي أعطت لغتها لثقافتنا؛ فلم يعد ممكناً تصوّر البلاغة كتقنية أو جمالية أو أخلاقٍ، بل كتاريخ؟ نعم، إنّ تاريخ البلاغة (كبحث، ككتاب، كتعليم) ضروريٌّ اليوم، ومُوَسَّعٌ بطريقة جديدة في التفكير (اللسانيات، السيميولوجيا، علم التاريخ، التحليل النفسي، الماركسية)»[1]، ولعلّ السؤال الأكثر التصاقاً بالمفهوم الحديث للخطاب باعتباره نصًّا منظوراً إليه في سياق إنتاجه هو ما طرحه حول إمكانية الاستفادة من البلاغة الأرسطية في تحليل الخطاب التواصلي، يقول: «كيف يتمّ تجنّب هذا الدليل الذي يقدّمه أرسطو (الشعرية، والمنطق، والبلاغة) لكلِّ لغةٍ سرديةٍ، خطابيةٍ، حجاجيةٍ، تنقلها "التواصلات الجماهيرية"، وهي شبكة تحليلية كاملة (انطلاقاً من مفهوم "الاحتمالية") وتجسّد هذا التجانس الأمثل للغةٍ واصفةٍ ولغةٍ- موضوعٍ يمكنها أن تحدّد علمًا تطبيقيًا؟، إذن فالأرسطية، في نظامٍ ديمقراطيٍّ، ستكون أفضل علم اجتماعٍ ثقافيٍّ»[2].

1 R. Barthes, L'ancienne rhétorique, p223.
2 Ibid , p 223.

المحاضرة الرابعة عشرة:

الأسلوبية وتحليل الخطاب

مقاربة لتحليل الخطاب

عند "عبد السلام المسدي" و"مُحَمَّد الهادي الطرابلسي"

شكّلت المقاربات المختلفة لتحليل الخطاب هاجساً لدى الناقدين العرب، وتوزّعت اهتماماتهم بين مطبّقٍ مباشرٍ للمقولات، وبين مازجٍ للآليات والأدوات والمناهج، وقد كان للأسلوبية أثرها في جذب أنظار الدارسين الأكاديميّين، فكان جهد الباحثين العرب في تعريف الطلبة والقرّاء والمبدعين بالأسلوبية بين منظّر ومطبّق، إذْ حاول المنظّر الإلمام بتعريفاتها وتقريب مصطلحاتها ومفاهيمها، وإبراز وجهة نظرها الجديدة في مقاربة الخطاب الأدبي، بينما كانت التطبيقات وخاصّةً الأولى في النشر مقياساً لفائدة الأسلوبية في تحليل النصوص الأدبية، ولذا يمكننا في هذه المحاضرة أن نبرز تساؤلاً مفاده: هل تمثّل الأسلوبية مقاربةً للخطاب الأدبي؟.

وقبل الإجابة عن السؤال والنظر في نموذجيْن للمقاربة العربية لتحليل الخطاب من وجهة نظرٍ أسلوبية، نودّ أن نشير إلى رأي "دومنيك مانغينو" في تطوّر الأسلوبية كمنهج في تحليل النص الأدبي، إذ يعلّق على هذا التطوّر ومظاهره قائلاً: «لقد غنِيَ هذا التخصّص بشكلٍ كبيرٍ على مدى العقود الثلاثة الماضية، وأدّى الإدخال الهائل للمفاهيم من نظريات التلفّظ اللسانية ولسانيات النص والاتجاهات التداولية إلى تعديلٍ كبير في الطريقة التي يمكننا من خلالها تصور العلاقة بين "اللسانيات" و"الأدب". وساهمت هذه القضايا الجديدة في تطوير أسلوبيةٍ للنص الأدبي أكثر عمقًا. فالتقدم في قضايا الإشاريات، والتشكيل، وأجناس الخطاب، وعلامات التفاعل الشفهي، والعمليات الحجاجية، والمضمر، والعائد إلخ؛ جعل من الممكن الدخول بشكل كاملٍ في العمل الأدبي، لفهمه كعملية تلفّظية وككلٍّ نصيّ»[1]، إنّ هذا التطوّر لم تشهدْه بعدُ الأسلوبية في الأوساط الأكاديمية العربية، لأنّه تمّ أوّلاً حصرها في المناهج الأسلوبية القديمة التعبيرية والبنيوية والنفسية والإحصائية، وثانياً لأنّه تمّ النظر إليها على أنّها علمٌ مستقرٌّ ثابتٌ بمجموعة من المقولات.

انطلاقاً من وجهة النظر هذه أي بالنظر إلى الأسلوبية على أنّها تحليلٌ للخطاب الأدبي، يمكن أن نعرضَ تصوّريْن عربيّيْن للتخصّص، بالتفريق بين النظري والتطبيقي، وهما كتابا "عبد السلام المسدي": "الأسلوبية والأسلوب"، و"محمّد الهادي الطرابلسي": "خصائص الأسلوب في الشوقيات".

1 D. Maingueneau, Stylistique, analyse du discours littéraire, p1501.

1 - عبد السلام المسدي:

يعتبر كتاب "الأسلوبية والأسلوب" لـ"عبد السلام المسدي" من أوائل الكتب العربية التي اهتمّت بالتعريف بالأسلوبية (طبع أوّل مرّةٍ في سنة 1977)، ونستطيع القول بأنّه أوّل من ترجم المصطلح الدالّ على العلم (STYLISTIQUE)، وقد أبرز في مقدّمة كتابه (في الطبعة الثانية سنة 1982) بعنوان: "الأسلوبية العربية بين المكتسب والمنشود" بعض الآراء تجاه الأسلوبية وموقفه من الحداثة آنذاك عبر مجموعة من النقاط، إذ يقول: «حديثٌ بيننا علم الأسلوب، وشأن كلّ حديثٍ أن تمتدّ إليه يد المجاذبة: مرّةً إلى الإعجاب فالتمجيد فقصر الحداثة عليه، ومرّةً إلى الاستغراب والتحرّز فالاستعجام، ولكنّ الأسلوبية بين المناصرة والمنافرة قد شقّت في طمأنينة وثباتٍ طريقها إلى الفكر العربي الطموح إلى حداثة لا تفصم مواثيق أصالته ولا تنال من المقومات التي تصل الذات بقيم الفكر وأواصر اللغة وخزائن الميراث»[1]، وأبرز النقاط التي أعقبت هذا النصّ هي:

- تداخل الأسلوبية لدى النقاد والباحثين مع معارف أخرى ليس فيه أصلٌ "ولعلّ سلامة مصير الأسلوبية في رحاب الفكر العربي تقتضي إيضاح الفواصل بين هويات معرفية تقبل التضافر والمعاضدة ولكنّها تأبى التعاظل والمخالطة".

- الصلة الوثيقة بين الأسلوبية واللسانيات "غير أنّ كلا العلميْن قد قويت دعائمه وتجلّت خصائصه فتفرّد بمضمونٍ معرفيٍّ جعله خليقاً بمجادلة الآخر في فرضياته وبراهينه وما يتوسّل به إلى إقرار حقائقه".

- الفرق بين الأسلوبية والبنيوية هو أنّ الأسلوبية علمٌ، ذلك أنّها "لا تتطاول على النص الأدبي فتعالجه إلّا ولها منطلقات مبدئية تحتكم فيها إلى مضامين معرفية"، وهي كغيرها من العلوم لا تقارب النص بالشرح أو تكاشفه بالتأويل إلّا ولها منطلقات معرفية ومصادرات نوعية، بينما البنيوية ليست علماً ولا فنًّا معرفياً، "وإنّما هي فرضية منهجية قصارى ما تصادر عليه أنّ هويّة الظواهر تتحدّد بعلاقة المكوّنات وشبكة الروابط أكثر ممّا تتحدّد بماهيات الأشياء". وقد أدّى التطبيق عربياً في كلّ من

1 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص5.

الأسلوبية والبنيوية إلى الخلط بينهما يقول: «ولما كان النص الأدبي مقصداً من مقاصد البنيوية، وكانت البنيوية منبعاً خصيباً للرؤى الموغلة في التجريد الشكلي إلى حدّ التوسّل بأساليب المنطق الصوري أحياناً، فقد قامت بعض المناهج في النقد العربي تمارس الخطّ البنيوي وتستوحي الممارسة اللغوية في بناها الشكلية فامتزج الصوري بالأسلوبي واشتبه الأمر على كثيرين»[1].

– الفرق بين الأسلوبية والبلاغة في الممارسة التطبيقية وهو ما كان غائباً في الكثير من الأبحاث العربية.

2- محمد الهادي الطرابلسي:

يعدّ كتاب "خصائص الأسلوب في الشوقيات" لـ"محمّد الهادي الطرابلسي" من أوائل التطبيقات الأسلوبية في دراسة النصّ الأدبي العربي والشعر خصوصاً، وضخامة الكتاب (573صفحة) لكونه منشوراً ضمن منشورات الجامعة التونسية (سنة 1981)، كان صورةً عن التطبيق الدقيق التفصيليّ للمفاهيم الأسلوبية في الشعر العربي، وقد حدّد أهدافه من الكتاب في المقدّمة قائلاً بأنّها ثلاثة أهداف هي[2]:

– وصف نظام اللغة العربية بالاعتماد على كلام عربي يمثّلها في طور من أطوارها لنتبيّن مدى الثبوت في قواعدها واستعمالاتها ومدى التحوّل، فندرك خصائصها المميّزة وإمكانيات التطوّر فيها.

– وصف حياة العربية في النصوص الشعرية خاصّة لنقدّر مساهمتها في خلق الجوّ الشعري علّنا نوفّق إلى حدود المستويات المختلفة في الكلام ونهتدي إلى وظائف اللغة المختلفة في بلورة هذه المستويات.

– وصف حياة العربية في شعر شاعر معيّن هو أحمد شوقي لنتبيّن الحظّ الذي يكون للفرد في إجراء مظاهرها والأثر الذي يتركه الشاعر فيها والطابع الذي تتّسم به هي في شعره.

وقد حدّد الوسيلة التي تمكّنه من بلوغ هذه الأهداف في الأسلوبية، وهي آخر ما تفرّع عن اللسانيات من علوم اللغة الحديثة، إذ تسدّ الثغرة في بلوغ الأهداف تنظيراً وتطبيقاً وعلماً ومنهجاً، ولكنّ

1 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص6

2 محمّد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص 9.

منهجه في دراسته اتّسم بالانتقال من التطبيق إلى التنظير، أي بالخروج بنتائج من كلّ تطبيقٍ يقوم به على ظاهرةٍ معيّنة، ثمّ يحدّد أركان قاعدة عمله على ثلاثة أركان هي: الشعر واللغة والأسلوب، ثمّ يبيّن رؤيته لهذه الأركان[1]:

- رؤية لماهيّة الشعر، إذ الشعر في رأيه ينطلق من مضمون فكري، ولكنه لا يسمو إلى درجة الفن المتميّز إلا بما يتجاوز به المضمون الفكري من إمكانيات الأداء.
- تمثّل اللغة مرجعًا لكلّ مظهر من مظاهر الكلام، وكلّ مظهر لغوي شاع في الاستعمال وتواتر ولم يدخله تغيّر أو تحريف منذ استعماله الأول في وضع اللغة فأصبح من مظاهر اللغة المميّزة ومن عناصر قواعدها الثابتة ومن علامات نظامها المحكم ومن لبنات رصيدها المشترك.
- رأيه في أنّ مضانّ الأسلوب للكشف عنه تتمثّل في الجانب المتحوّل عن اللغة وأشكال التحوّل كثيرةٌ؛ قد تكون عن قاعدة نحوية أو بنية صرفية أو وجهة معنوية أو في تركيب جملة وغير ذلك من الأشكال. لكنّه يقسّم المتحوّل إلى نوعين: المتحوّل المشترك والمتحوّل الخاصّ.

1 محمّد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص10-11.